مكتبة الروضة الحيدرية
النجف الاشرف

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم
التاريخ

الثقافة العالمية

مجلة تترجم الجديد في الثقافة والعلوم المعاصرة

العدد ٣٨ المجلد السابع / السنة السابعة ـ جمادى الاولى ١٤٠٨ هـ ـ يناير (كانون الثاني) ١٩٨٨ م

في هذا العدد :

- جامعة القاهرة والمستشرقون ٧
- التوفيق بين علاقات المجموعة الاقتصادية الأوروبية والكوميكون ٤٤
- الأوروبيون جنس في طريقه الى الاختفاء ٦١
- مشكلات الشباب والسياسة في الثمانينات : بعض المقارنات الدولية ٦٩
- دور العائلة في النمو الهني ٩٦
- اللغة عند الاطفال : بحث حول أسرار تعلم الطفل الكلام ١٠٦
- حوار مع : اليكسي يابلوكوف ١١١

- ملف العدد : المناعة والأمراض الناجمة عن نقصها
  - المفاهيم الحالية عن المناعة تتركز على الانماط الذاتية والشبكة النمطية الذاتية ١١٨
  - مرض نقص المناعة المكتسبة (الايدز) ١٣٠

- تقارير المراسلين :
  - رسالة لندن ١٥٨
  - رسالة أوروبا الشرقية ١٧١
  - رسالة باريس ١٨٣
  - رسالة مدريد ١٩٣
  - رسالة موسكو ٢٠١

تصدر دورية كل شهرين عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت

● جامعة القاهرة والمستشرقون

بقلم : دونالد مالكولم رايد
ترجمة : صلاح الدين عثمان هاشم

يتطرق هذا المقال الى الدور الأكاديمي الذي لعبه المستشرقون في جامعة القاهرة اثناء قيامهم بالتدريس فيها خلال النصف الأول من هذا القرن. وقد تمثل هذا الدور في ادخالهم لمناهج البحث العلمي الغربية الحديثة، واثارتهم التساؤلات حول كثير من المسلمات الأدبية والتاريخية في الأدب العربي، كما يتطرق في شيء من الاسهاب لأربعة من القضايا، ممثلة في أربعة مؤلفات سار اصحابها في وضعها على نهج المستشرقين.

«ثم نمت الجامعة واستدعي لها بعض كبار المستشرقين واختير لها بناء هو بناء الجامعة الاميركية اليوم. فأعجبني من دروسها محاضرات يلقيها الأستاذ نللينو في تاريخ الفلك عند العرب .. رأيت لوناً من ألوان التعليم لم أعرفه : استقصاء في البحث وعمق في الدرس وصبر على الرجوع إلى المراجع المختلفة ومقارنة ما يقوله العرب وما يقوله الأفرنج ، واستنتاج هادىء رزين [1] *من كل ذلك» .

بهذه الألفاظ عبّر أحمد أمين حينما كان أستاذاً بجامعة القاهرة عما يدين له للمستشرق الايطالي كارلو الفونسو نللينو C.A.Nallino بما لا يترك زيادة لمستزيد . وكان أحمد أمين قد استمع لأول مرة لنللينو بالجامعة المصرية التي انشئت قبل قليل من هذا (والتي أصبحت فيما بعد جامعة فؤاد الأول، ثم جامعة القاهرة) والتي حاضر فيها ذلك المستشرق الايطالي في الفترة بين عامي ١٩٠٩ و ١٩١٢. وفيما بعد طبعت الجامعة محاضراته في تاريخ الفلك عند العرب التي تركت مثل ذلك الأثر القوي على أحمد أمين[٢] .

العنوان الأصلي للمقال :

Donald Malcolm Reid «Cairo University and the Orientalists» International Journal of Middle East Studies. February, 1987.

* هذه الألفاظ نقلتها من المتن العربي لكتاب أحمد أمين «حياتي» ، ويبدو انها تختلف بعض الشيء عن الترجمة الانجليزية للكتاب التي اعتمد عليها كاتب المقال ـ المترجم.

وكـان طه حسـين من بين الطلبـة والأساتذة المصريين الذين شاطروا أحمد أمـين إعجابه بعمق معارف المستشرقين وماكشفوه لديهم من منهج جديد في البحث بل ومن مادة جديـدة ، وبمعالجتهم لموضوعات قديمة بأسلوب حديث ، وبتصورهم الجديد للعالم جذبهم إليه بشدة.[٣] .

غير أن عدداً من معـاصري أحمـد أمـين وطه حسين ممن لهم صلة بالأزهر ، اتخـذوا موقفـاً متعسفـاً ازاء استخـدام الغـربيـين في تدريس مسائل لها مثل تلك العـلاقـة الـوثيقـة بالـدين والسيـاسة . ولاقتناعهم بأن المستشرقين يحملون عداءً شديـداً للإسـلام والمسلمين ، فقد عقدوا العزم على حماية الأمة بإدانة النفر الذين تالبـوا مع الأعـداء . وكـانت الجـامعـة المصـرية بأساتذتها الأوروبيين ونماذجها المأخوذة عن الغرب موضع ارتيابهم منذ الوهلة الأولى .

●●●

وفي مقـالنـا هذا سنفحص دور المستشرقين الأوروبيين بجامعة القاهرة التي لعبت دوراً مهمـاً في تاريـخ مصـر الحـديثة ، كما سنحلل الخلفيات القومية لهؤلاء المستشرقين . بعد هذا يتعرض مقالنا لتحليل ردود الفعل المصرية إزاء المستشرقين وإزاء أولئـك المصـريـين الـذين اعتنقوا منهجهم ، والعواقب التي ترتبت على ذلك . والفترة التي نعالج الكلام عليها تبدأ بتأسيس الجامعة عام ١٩٠٨ وتنتهي بسقوط الملكيـة بمصـر عام ١٩٥٢، وكانت بحق فترة عصيبة في تاريخ نضال مصر لتصوغ لنفسهـا هويـة قوميـة حديثـة لهـا كيـانهـا الخـاص بهـا ـ وكانت ردود الفعل إزاء المستشرقين صفحة من صفحات ذلك النضال .

تأسيس الجامعة :

فتحت الجـامعـة المصـريـة أبوابها عام ١٩٠٨، وهو العام التالي لنهاية فترة السيطرة الطويلة للورد كرومر Lord Cromer على شئون مصر[٤] . وكان اللورد كرومر يشغـل رسميـاً منصب «القنصـل العـام لبريطانيا بالقاهرة ، ولكن كان له الاشراف الفعـلي على توجيـه السيـاسـة المصـريـة . وقـد تركـزت المعـارضة ضد السيطرة البريطانية آنذاك في صحيفتي «اللواء» التي كان يحررها مصطفى كامل و «المؤيد» التي كان يتـولى تحـريـرهـا علي يوسف ، ممـا جعل الأعوام الأخيرة لكرومر عسيرة للغاية . وكان ما أبداه البريطانيون من فظاظة ووحشية في إعدام عدد من الفلاحين في حادث دنشـواي لعـام ١٩٠٦ قد هزّ مشـاعر حتى أولئك المصريين الضالعين مع السلطـة . وتـزعّم أصحـاب الـوعي السيـاسي حركـات الطلبـة وظهـرت الأحـزاب

نللينو

احمد امين

طه حسين

السياسية بالمعنى المفهوم من اللفظ. وأضيف إلى هذا المشكلات الاقتصادية التي استفحلت عام ١٩٠٦ ـ ١٩٠٧، مما زاد في قلق أصحاب الأملاك من المصريين الذين ربطوا مصالحهم بعجلة السيطرة الأجنبية على البلاد لأنهم حصلوا على ثروتهم أو زادوا فيها تحت ظلها .

ولخشية اللورد كرومر من أن يسوق انشاء جامعة بمصر على الطراز الاوروبي إلى الاضطرابات السياسية فقد عارض في قيامها ، مبّرراً ذلك بنقص الاعتمادات المالية وجاهداً دون توفيق في تأييد التوسع في التعليم الأوّلي من أجل الكتل الشعبية. لهذا تكوّنت لجنة من الوطنيين أخذت بزمام المسألة في يدها ، ونظراً لأن كرومر نفسه كان قد دعا إلى المبادرة الشخصية والعون الذاتي فإن اعتراضاته على قيام الجامعة بدت غير مقنعة .

وفي مراحل معينّة كانت الشخصيات التي تبنّت مشروع انشاء الجامعة تضم كبار ملاّك الأراضي وكبار موظفي الدولة وبعض أفراد الأسرة المالكة ، وأيضاً الطبقة الجديدة من المتعلمين كالصحفيين والمحامين والمدرسين. وممن ساند المشروع الزعيم الوطني مصطفى كامل، ودعاة الاصلاح من مدرسة الإمام محمد عبده مثل قاسم أمين وسعد زغلول ، وصاحب الهلال جرجي زيدان اللبناني الأصل ، وأخيراً الخديوي عباس حلمي الثاني والأمير أحمد فؤاد الذي أصبح الملك فؤاد فيما بعد . غير أن هؤلاء الناس جميعاً كانوا مختلفي المشارب بصورة تعذّر معها التنسيق بينهم . وبدأ أنصار مصطفى كامل فانسحبوا من المشروع ، كما وأن جرجي زيدان تعذّر عليه التدريس بالجامعة الجديدة لاعتراضات ذات طابع ديني ، كذلك لقي تلامذة محمد عبده صعوبة في التعامل مع الأمير فؤاد الذي اضطلع في النهاية بتحقيق المشروع .

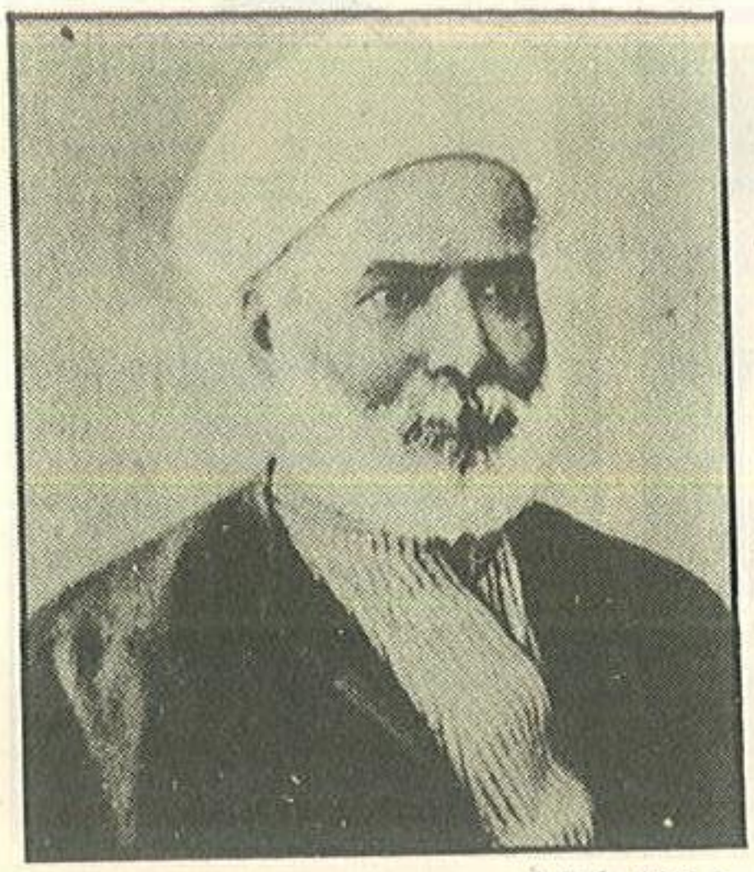

محمد عبده

الخديوي عباس حلمي

وكـان من جراء النقص في الاعتمادات أن ظلت الجـامعة محدودة الأبعاد وفي وضع مهتـز ، أوشكت معـه أن تلفظ أنفاسها إبّان الحـرب العـالمية الأولى . غير أن اعتلاء فؤاد الأول عرش مصـر ، وثورة ١٩١٩ الشعبية ، وظهـور حزب الـوفـد ، واعتـراف بريطـانيا بضـرب من الاستقلال لمصر عام ١٩٢٢، كل هذا غيّر كثـيراً من الأوضاع في البلاد فضمّت الحكـومـة إليها في عام ١٩٢٥ هذه الجامعة الأهليـة التي قامت على أكتـاف المـواطنين ، وأضافت إليها الكليات الموجودة من قبل وهي الحقـوق والطب كمـا أنشئت كليـة للعلوم . وبهـذا نمت المؤسسـة سريعـاً بفضل رعاية الدولة لها لتصبح جامعة مكتملة الجوانب .

ولمّـا كان عدد من أنصـار الجـامعـة يعتبـرون الأزهر مؤسسة عفا عليها الزمن ، كمـا أن الكليات المتأثرة بالغرب مثل الحقوق والطب والهنـدسـة ومعهـد المعلمـين كانت معـاهد ضيقة في تخصّصها فقد هفا بصرهم الى الجـامعـة لتعيـد الحيـاة الفكـريـة إلى البلاد في وجه التحدي من الغرب المتقدم . وكان بعضهم يأمل في أن تُعاون المؤسسة الجـديـدة في الاستقـلال السيـاسي للبـلاد ؛ الأمـر الذي خشيه منذ البداية اللورد كرومر . غير أن مؤسسيها اعتنقوا التصور السائد بالغرب آنذاك وهو العلم من أجل العلم ، على أن ينبع هذا العلم من التـراث العـربي الاسلامي القديم في ارتباط مع المعارف الأوروبية الحديثة .

ولم تلبث هذه الجـامعـة ، ولما تبلغ بعد سن الرشد ، أن تبادر بإرسال طلبتها الممتازين إلى أوروبا للحصول على اجازة الدكتوراه والعودة لتدريس العلوم الحديثة باللغـة العـربيـة ، غير أن هذا الأمـر احتـاج إلى أعـوام بل والى عشـرات الأعـوام ليتحقق ، لذا فقد أثيرت مسألة الاستعانة بأساتذة من الخارج للتدريس بالجامعة لحين عودة أولئك المبعوثين .

وكـان الأسـاتـذة الـزوار من الانجليـز والفرنسيين يقومون بتدريس الأدبين الانجليـزي والفـرنسي مستعملين في هذا لغتهم القـوميـة . أما فيما يتعلق

احمد فؤاد

مصطفى كامل

بالادب العـربي والتـاريـخ الاسـلامي وتـاريـخ الفلسفـة ، فان اختيـار الاسـاتـذة لم يستنـد على اسس واضحة تمام الوضوح . وكان احد الخيارات الاستفـادة من العلمـاء المحليـين ممن لهم درايـة بالمنهـج النقدي لدى المستشرقين واكتسبوا الخبرة لانفسهم في ذلك الميدان ، مثل جرجي زيدان واحمد زكي (بـاشـا) الـذي عرف بحبه للكتب، أوخريجي دار الـعلوم . ذلـك أن دار العلوم كانت وسطـاً بين المـنـهـجـين الأزهـري والغـربي ، فقـد خلطت الـرياضيات والجغرافيا والتاريخ والعلوم الطبيعية بالمناهج التقليدية لتدريس علوم الدين وعلوم اللغة العربية[٥] .

ويقـدم لنـا طه حسين بما عهد فيه من براعة في الـوصف ، صورة حيّـة لدار العلوم كما أبصرها آنـذاك الأزهريون من ناحية والجامعيون من ناحية أخرى يقول :

«ولم ينس الفتى يوماً خاصم فيه ابن خالته الذي كان طالباً في دار العلوم ولجّ بينهما الخصام . فقال الدرعمى للأزهري ما أنت والعلم ، إنما أنت جاهل لا تعرف إلّا النحـو والفقـه ، لم تسمـع قط درساً في تاريخ الفراعنة! اسمعت قط باسم رمسيس أو اخنـاتـون ؟ وبهت الفتى حين سمـع هذين الاسمين ، وحين سمع ذكر هذا النوع من التـاريـخ . واعتقد أن الله قد كتب عليه حياة ضائعة لا غناء فيها . ولكنه يرى نفسه ذات ليلة في غرفة من غرفات الجامعة يسمع الأستاذ احمد كمال رحمه الله يتحدث عن الحضـارة المصـريـة القـديمـة ، ويـذكر رمسيس واخناتون وغيرهما من الفراعنة ، ويحاول أن يشرح للطلاب مذهبه في الصلة بين اللغة المصرية القديمة وبين اللغات السامية ، ومنها اللغة العربية . ويستدل على ذلك بالفاظ من اللغة المصرية القديمة يردهـا إلى العـربيـة مرة والى العبـرية مرة والى السريانية مرة اخرى . والفتى دهش ذاهـل حين يسمـع كل هذا العلم ، وهـو أعظم دهشـة وذهولاً حين يلاحظ أنه يفهمه ويستسيغـه في غير مشقـة ولا جهـد . وهـو يعـود إلى بيته ذلك المساء وقد ملأه الكبر والغرور ، ولا يكاد يلقى ابن خالته حتى يرفع كتفيه ساخراً منه ومن دار علومه التي كان يستعـلي بهـا عليـه . وهـو يسأل ابن خالتـه : اتتعلمون اللغات السامية في دار العلوم؟ فإذا اجـابـه بأن هذه اللغات لا تدرس في المدرسة أخذه التيه . وذكر العبرية والسـريـانيـة . ثم ذكـر الهيروغليفية، وحاول أن يشرح لزميله كيف كان المصريون القدماء يكتبون» .[٦]

وقد بذل الأساتذة الدرعميون جهداً كبيراً في الجامعة الجديدة ، ولكن المصريين الذين قفلوا راجعين من أوروبا في العشرينات حاملين اجازاتهم العلمية تخلصوا من معظمهم بطريقة غير لطيفة .

أما في محيط الآداب فقد سدّت الجامعة حاجتها في تلك الفترة من المستشرقين الأوروبيين ، ممن كان بمقدورهم القاء المحاضرات باللغة العربية . وقد قاموا بدور فعّال منذ تأسيس الجامعة عام ١٩٠٨ و الى أوائل الثلاثينات ، ولكن دورهم تضاءل بعد ذلك حتى اختفى تماماً في الخمسينات . وكان الأمير أحمد فؤاد رئيساً لمجلس الجامعة (١٩٠٨ ـ ١٩١٣) وراعيها الأول[٧] . ولما تولى عرش مصر من عام ١٩١٧ الى عام ١٩٣٦ استعاد اهتمامه بالجامعة مرة أخرى ، وعضد فكرة الاستعانة بالمستشرقين للتدريس بها .

ولم يكن الأمير فؤاد قد تجاوز العاشرة من عمره عام ١٨٧٩ حين غادر والده الخديوي اسماعيل البلاد إلى منفاه بايطاليا نتيجة للأزمة المالية التي وقعت فيها مصر . لذا تلقى الأمير تعليمه بجنيف ثم بالأكاديمية العسكرية بتورين ، وخدم ملازماً بالمدفعية الايطالية لبعض الوقت . وفي أثناء شغله منصب ملحق عسكري بالسفارة العثمانية بفينا ضم إلى لغاته الألمانية ، هذا إلى جانب معرفته السابقة بالايطالية والفرنسية والتركية (ولعله كان من الأفضل لو أجاد خيراً من ذلك العربية ليستطيع التحدث مع رعاياه ، والانجليزية ليتفاهم مع البريطانيين المحتلين لبلاده) . وقد عمل الأمير احمد فؤاد لمدة قصيرة مستشاراً لابن عمه الخديوي عباس حلمي الثاني وذلك في التسعينات من القرن الماضي ، ثم هجر النشاط السياسي إلى أن ساقته ظروف لم تكن في الحسبان ليعتلي عرش مصر عام ١٩١٧ .

ولم يكن فؤاد أثناء رئاسته للجامعة رئيساً صورياً ، فقد استفاد من صلاته بملوك أوروبا وساستها ليغري المستشرقين للتدريس بها . وثمة اثنان من أعضاء مجلس الجامعة وهما احمد زكي (باشا) وغاستون ماسبيرو G.Maspero كان باستطاعتهما التدريس فيها ، فأحمد زكي . شارك في عدد من مؤتمرات المستشرقين بأوروبا كما وأن الفرنسي ماسبيرو شغل آنذاك منصب مدير الانتكخانة (متحف الآثار القديمة) بمصر وكان على معرفة جيدة بالدوائر الأكاديمية بأوروبا[٨] .

قدوم المستشرقين الاوروبيين للتدريس بالجامعة

ولولا رعاية الأمير فؤاد فلعله لم يكن ليقدّر للايطاليين شغل مراكز كبرى بالجامعة الجديدة. حقاً وجدت جالية ايطالية بكل من الاسكندرية والقاهرة ، كما

وأن الايطـاليـين أشرفـوا على مصلحـة البـريد بمصر. غير أن الفرنسية حلّت محل الإيطـالية كاللغة الجارية في الاستعمال بموانىء البحر المتوسط ، كما وأن جدّ فؤاد الأكبر وهو محمد علي فضل فرنسا على ايطاليا لمعظم البعثات العلمية التي أرسل بها إلى أوروبـا . ثم لم تلبث الفـرنسيـة أن حلّت محـل الايطـاليـة كاللغـة الأوروبيـة المستعملة بطوابع البريد المصرية .

ورغماً من أن الجامعة لم تدّرس الأدب الايطالي، أسوة بما كان عليه الحال مع الأدبـين الانجليـزي والفـرنسي، فإن ايطاليا قدمت أوائل المستشرقين الذين تولوا التدريس بالجامعة الجديدة . فقدم إليها اغناطيوس جويدي I.Guidi وكارلو الفونسو نللينـو ودافيـد سنتيلانا D. Santillana لتدريس الموضوعات العربية والاسلامية[٩] . وجـيراردو ميلوني G. Meloni لالقـاء محاضرات في تاريخ الشرق القديم . ولمّا استنكر ماسيبـرو استخـدام الأمـير فؤاد لذلـك العـدد الكبـير من الايطاليين وعدم تمسكه بالتـوازن بين القـوميـات[١٠] ، كان الرد المتواضع للأمير فؤاد هو أن العامل العلمي رجح لديه على العامل السياسي ، فضلاً عن أن ايطاليا وافقت سلفاً على دفع مرتبات الأسـاتـذة المنتـدبين للتدريس بمصر. كذلك تبرعت ايطاليا بخمسمائة مجلد لمكتبة الجامعة وأرسلت الدكتور فنشنسو V. Fago من جامعة روما ليضطلع بتنظيمها .

غير أن غزو ايطـاليـا لليبيا عام ١٩١١ وضع حداً لهذا الشعور الطيب نحوها بالجامعة . وخرج الطلبة محتجين من محاضرات نللينو . ورغماً من أن أحدهم أهاب في الصحف بأن يستمر نللينو في التدريس لأن العلم لا وطن له[١١] ، فإن هذا لم يغيّر من الوضع في شيء ولم يجدّد عقد الاستاذ .

ولم يستطـع فؤاد استعـادة الايطـاليين إلّا عام ١٩٢٥ عندماوضعت الدولة يدها على الجامعة . فها هو ابن اغناطيوس جويدي وهو ميكلانجلو جويدي M. Guidi يحاضر من عام ١٩٢٦ إلى عام ١٩٢٩ حول لغات الجنوب العربي القديمة[١٢] . كما أن نللينو عاد كأستاذ زائر بين الأعوام ١٩٢٧ و ١٩٣٢ . وفي عام ١٩٣٣ عيّنه الملك فؤاد عضـواً بمجمـع اللغة العربية الجديد[١٣] . غير أن الأساتذة الايطاليين اختفوا من الجـامعـة بالتالي ، ولعل السبب في ذلك أن محاولات فؤاد للسيطرة على الجامعة وعلى السياسة القومية في أوائل الثلاثينات لم تكلّل بالنجاح .

كانت المحلّة الأولى في قلب فؤاد للايطاليين ، ولكنه كان أيضاً محباً للفرنسيين . ورغماً من أن فرنسا تمتعت بمكانة خاصة بمصر منذ أيام نابليون ، فإن الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢ أضعف مركز فرنسا وجعلها في موقف الدفاع . ولم تلبث الانجليزية أن حلت محل الفرنسية بكلية الحقوق والمدارس الثانوية ، بل وأصبحت

في عام ١٩١٤ اللغة الاوروبية المستعملة بطوابع البريد المصرية. بيد أن فرنسا احتفظت بوضعها في المحاكم المختلطة وبمصلحة الآثار وفي أوساط الطبقة العالية بالمجتمع المصري . كذلك استمر نشاط المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة . ولما خففت انجلترا من قبضتها على مصر عام ١٩٢٢، استردت فرنسا مكانها في أقسام من الجامعة وحلت الفرنسية محل الانجليزية في طوابع البريد .

ورغماً من أن ماسبيرو ظل شاغلاً لمركزه بمجلس الجامعة قبل الحرب العالمية الأولى ، فإن الفرنسي الوحيد الذي عمل بالتدريس في البداية كان أستاذ الأدب الفرنسي . ولما اضطر الايطاليون إلى الرحيل حلّ محلهم اثنان من المستشرقين الفرنسيين الشبان ، هما : لويس ماسينيون L. Massignon وغاستن فييت G. Wiet [١٤] . ولكنهما لم يمكثا في المرة الأولى لأكثر من عام ، وإن كان كافياً لخلق علاقات وطيدة بينهم وبين بعض المصريين . وفي عام ١٩٢٦ أصرّ الملك فؤاد شخصياً على أن يرجع فييت ليدير متحف الفن الإسلامي بالقاهرة. وقد ظل فييت يشغل هذا المنصب إلى عام ١٩٥١، وشارك في هذه الفترة في مناقشة عدد من الرسائل المقدمة الى الجامعة . أما ماسينيون فقد حاضر لمدد قصيرة بالجامعة في الثلاثينات ، وفي عام ١٩٣٣ عينه الملك فؤاد عضواً بمجمع اللغة العربية الجديد .

غير أن فرنسا لم تتابع دورها الذي بشر بالكثير في الجامعة ، كما أبصرنا من مثال فييت وماسينيون . فكان أستاذ الفلسفة الذي حاضر بالعربية لبضعة أعوام هو الاسباني الكونت دي جلارزه de Galarza . وقدم الفرنسي بول كازانوفا P. Cassanova ليحاضر بالجامعة في العام الدراسي ١٩٢٥ ـ ١٩٢٦ وذلك قبل وفاته ، ولكن لم يوجد تمثيل دائم للاستشراق الفرنسي بالجامعة[١٥] .

والمانيا هي الوحيدة بين الدول الاوروبية الكبرى التي كان بامكانها أن تزعم على الأقل أنه ليس لها مطامع سياسية بالشرق الأوسط . وكان هذا من الدوافع التي جعلت الدولة العثمانية تقبل فكرة مد خط السكة الحديدية من برلين إلى بغداد ، وأن تستعين بالخبراء العسكريين الألمان في جيشها . ورغماً من الوجود السياسي الضعيف لألمانيا بمصر ، فقد نجحت في احتكار منصب المدير لدار الكتب المصرية بالقاهرة في يد مواطنيها إلى عام ١٩١٤. إذ شغل منصب مديرها خمسة من المستشرقين الألمان الواحد بعد الآخر (دوهم استيرن L. Stern ، واسبتا W. Spitta ، وفولرز K, Vollers ، وموريتس B. Moritz ، وشاد A. Schaadeo)، وذلك منذ انشائها في عام ١٨٧٠ إلى اشتعال نيران الحرب العالمية الأولى . وطرد البريطانيون آخرهم وهو آرثر شاده في عام ١٩١٤ بحجة أنه مواطن من دولة معادية[١٦]، فحلّ محله المفكر الليبرالي المصري أحمد لطفي السيد . ولمّا انتقل احمد لطفي السيد عام ١٩٢٥ مديراً للجامعة ظل المنصب في يد المصريين وحدهم ..

والمستشـرق الألمـاني الوحيد الذي عمل بالجامعة قبل الحرب العالمية الأولى كان اينو ليتمان Littmann ، الذي قام بتدريس فقه اللغات السامية المقارن وآدابها في الفتـرة بين عام ١٩١٠ و ١٩١٢ . ثم عاد إليهـا في عام ١٩٢٩ وعـام ١٩٤٨ كأستاذ زائر . وكان وصول ليتمان عام ١٩٢٩ ومعه جوتهولف برجستراسر G. Bergstrasser بداية موجة نشاط للاستشراق الالماني في فترة ما بين الحربين العالميتين . ففي عام ١٩٣٠ عاد إلى مصـر شاده وهـو نفس مدير دار الكتب الذي طرده البريطانيون من مصـر عام ١٩١٤ ، ليحـل محـل ميكـلا نجلوجويـدي بالجامعة . وحلّ محل شاده جوزيـف شاخت J. Schacht في الفتـرة بين ١٩٣٤ و ١٩٣٩ ، وپـاول كراوس* Paul Kraus الـذي درسّ اللغـات الشرقية من عام ١٩٣٦ إلى عام ١٩٤٤ ، وفي تلك الأثناء وذلك بين عامي ١٩٣٤ و ١٩٣٩ شغل كرسي تاريخ مصر الفرعونية هرمان يونكر H. Junker الألماني الجنسية[١٧] .

واعتـرض البـريطانيون على ميول يونكر النازية فاضطروه الى مغادرة البلاد عام ١٩٣٩[١٨] . غير أنـه بخـلاف يونكـر لم يوجـد للنازيين معاضد بين المستشرقين الألمـان بالجـامعـة . فيـاول كراوس (بـوصفـه يهـودياً) هرب من جامعة برلين عام ١٩٣٣ ، كما أن شاخت ، وإن لم يكن يهودياً ، فإنه أقحم نفسه في مشاكل سياسية بألمـانيـا اضطرته إلى مغادرة وطنه عندما استولى هتلر على زمام السلطة . ورغماً من ذلك تحفظ البريطانيون على مكتبته بالقاهرة عام ١٩٣٩ ومنعوه من العودة إلى مصر بعـد إمضـائـه عطلة الصيف بلندن. وقد ساهم شاخت في المجهود البريطاني أثناء الحـرب فعمـل بوزارة الاعـلام وبالاذاعة البريطانية ، ثم انتقل عقب ذلك للتدريس بجامعة كولومبيا بالولايات المتحدة .

وبخلاف الكابتن كريسويل K. A. C. Creswell المتخصص المشهور في المعمار الاسلامي[١٩] ، فإن عدد المستشرقين البريطانيين بالجامعة المصرية كان ضئيلاً بصـورة تدعـو إلى الـدهشة . ويبدو أن موقف العداء الذي اتخذه كرومر من انشاء الجـامعـة مسئـول الى حد كبـير عن هذا . أضف إلى هذا ان فؤاد لم يكن يتحـدث الانجليزية ولم يشعر لا هو ولا ابنه فاروق بصلة رحم ثقافية مع المحتلّ البريطاني .

غير أن البـريطـانيـين غلبـوا على قسم اللغـة الانجليزية بالجامعة إلى أوائل الخمسينـات ، كمـا أن تمثيلهم كان قوياً بكليتي الطب والعلوم . وأول مرة يضطلع فيها مستشرق بريطاني بالتدريس بالجامعة كان ذلك عام ١٩٢٩ ، بل إن قليلاً منهم

---

* أخطأ صاحب المقـال بكتـابتـه لاسم كراوس في صورة كراوزه Krause ، والصحيـح ما اثبتنـاه. امـا عن باول كراوس فراجع المقال المسهب لعبد الرحمن بدوي في كتابه «موسوعة المستشرقين» وكان بدوي على معرفة وثيقة به وبالظروف التي انتحر فيها بالقاهرة قبل قليل من نهاية الحرب العالمية الثانية . (المترجم) .

درّس بعد ذلك العام باستثناء كريسويل . ولكن الملك فؤاد عين المستعرب الانحليزي هاملتون أ.ر. جب H.A.R. Gibb عضواً بمجمع اللغة العربية عام ١٩٣٣، وإن لم تكن له علاقة رسمية بالجامعة . وفي العام الدراسي ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ جاء إلى الجامعة توماس ارنولد Th. Arnold من جامعة لندن بصفة أستاذ زائر ، كما قدم المهاجر الروسي فلاديمير مينورسكي V. Minorsky من جامعة لندن لالقاء محاضرات بجامعة القاهرة في الأعوام ١٩٤٨ ـ ١٩٥٠ . وشغل كرسي الدراسات المصرية القديمة البريطاني ب. إ. نيوبري P.E. Newberry من ١٩٢٩ الى ١٩٣١، غير أن المحاولات المتكررة من طرف السفارة البريطانية ليشغل ذلك الكرسي على الدوام بريطاني باءت بالفشل . وفي الأعوام من ١٩٣٢ الى ١٩٣٤ عمل بالجامعة المستعرب البريطاني ا. ج اربري A.J.Arberry ولكنه درّس بقسم الدراسات الكلاسيكية (اليونانية واللاتينية) وليس في اختصاصاته كمستشرق . وقد أبصر عدد من الموظفين البريطانيين بالكثير من عدم الارتياح تدخل حكومتهم في شئون جامعة القاهرة . لذا لم يعترضوا في عام ١٩٣٤ عندما شغل أحد الكراسي بها مواطن ألماني ، آخذين في الحساب أن عدد طلبته لن يتجاوز بأية حال الأربعة أوالخمسة . هذا الموقف المتخاذل أغضب كريسويل الذي عرف بحدة المزاج وبتعضيده للنفوذ البريطاني بالجامعة ، مما سبب الكثير من الحرج للسفارة البريطانية بالقاهرة غير مرة .

أما المستشرقون من الشعوب الاوروبية الاخرى فإن وجودهم بالجامعة كان ضعيفاً أو معدوماً . فمثلاً لم يقدم من الروس للعمل بها إلا بعض الذين غادروا روسيا عقب الثورة البولشفية عام ١٩١٧ ـ مثل مينورسكي وعالمي الدراسات المصرية القديمة وهما غولينيشيف V. Golenischeff وفيكينتيف V. Vikentiev . وقد أشرنا فيما مر إلى الاسباني دي جلارزه . وفي عام ١٩١١ رفض كل من الهولندي اسنوك هرخرونيه Snouck Hurgronje والمجري اغناس جولد تسهر I. Goldziher . والتشيكي دفورجاك Dvorak دعوة الأمير فؤاد لهم للتدريس بالجامعة المصرية .(٢٢) ولم يوجد أميريكي ما، لأن الولايات المتحدة لم تقتحم مجال الاستشراق أو النفوذ السياسي بالشرق الأوسط إلا في عهدٍ تالٍ لذاك .

الأساتذة المستشرقون والامبريالية الاوروبية:

بلغت الامبريالية الاوروبية أعلى مراحل تطورها في تلك الأعوام التي شرعت فيها الجامعة المصرية تستعين بالمستشرقين . ففي الشرق الأدنى وضعت بريطانيا يدها على مصر والسودان وقبرص واكناف الجزيرة العربية ، وشفعت بالعراق وشرق الأردن وفلسطين عقب ذلك بقليل . أما فرنسا فثبتت أقدامها بالجزائر وتونس واقتسمت النفوذ في المغرب مع اسبانيا عام ١٩١٢، كما احتلّت لبنان وسورية في

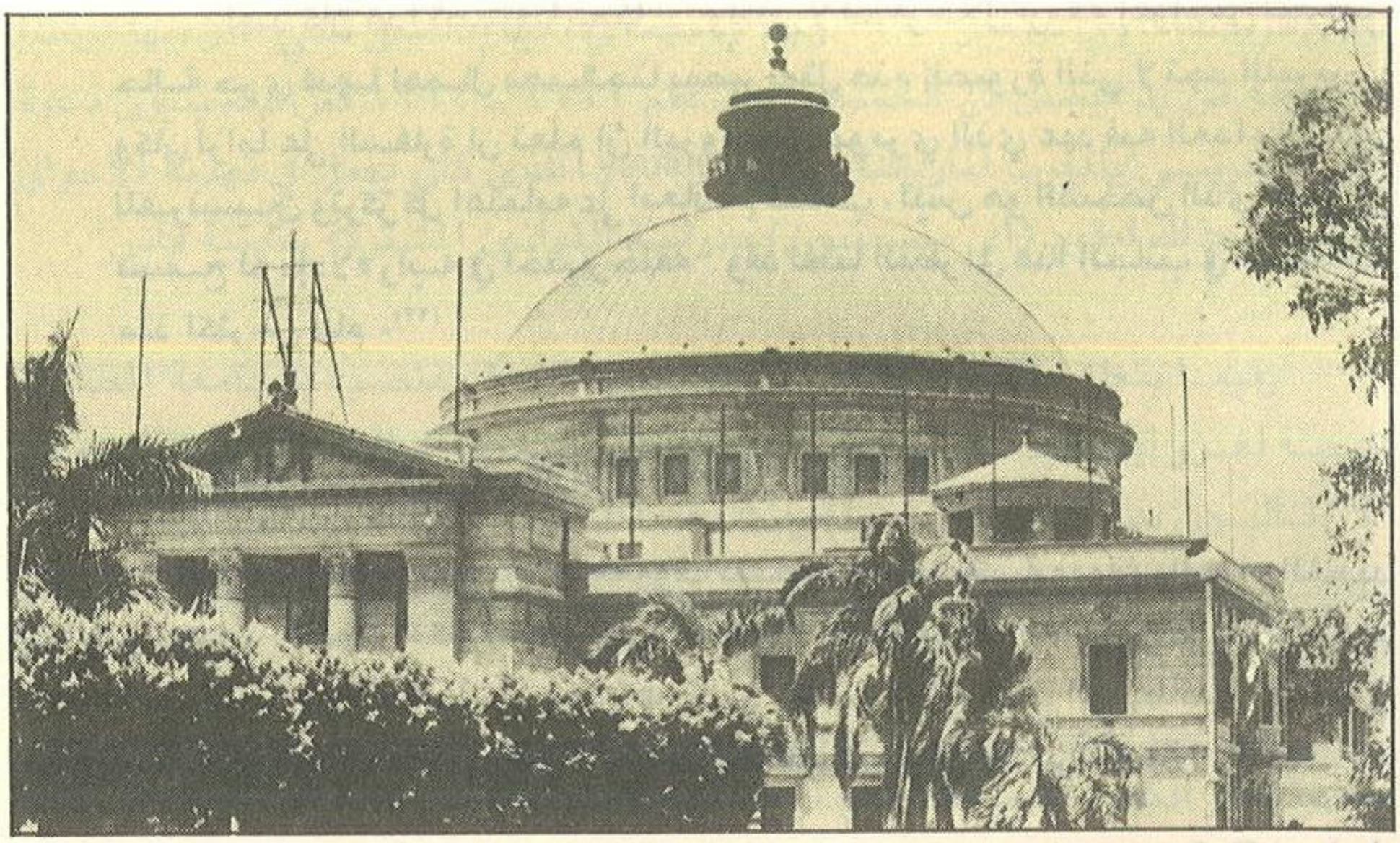

أعقاب الحرب العالمية الأولى . واستولت ايطاليا على ليبيا ، بينما جهدت روسيا ودولة الهابسبرج في مد نفوذها جنوباً على حساب الدولة العثمانية . كذلك وجد لألمانيا أطماع ودرجة من النفوذ ، إن ليس مستعمرات ، في قلب الدولة العثمانية نفسها فما هوالدور الذي لعبه المستشرقون في ذلك التوسع الامبريالي؟ كان أول مؤتمر للمستشرقين هو الذي انعقد بباريس عام ١٨٧٣، ولمّا تكن «الامبريالية الجديدة» قد شبت عن الطوق (أشبه ما يكون بازدهار دراسات منطقة الشرق الأوسط بالولايات المتحدة في أعقاب الحرب العالمية الثانية عندما مدّت اميريكا نفوذها بأنحاء المعمورة) . وكانت حاجة الامبريالية ماسّة إلى دراية المستشرقين باللغات الشرقية وغيرذلك من فروع الاستشراق . واعتصم بعض المستشرقين ببرجهم العاجي فتحاشوا الزج بأنفسهم في سياسة بلادهم ، غير أن المشاعر الوطنية كان لها القدح المعلّى آنذاك لذا فإن معظم المستشرقين سلكوا الاتجاه الطبيعي فوضعوا خبرتهم من وقت لآخر تحت تصرف وطنهم . ومن بين المستشرقين الذين عملوا بالجامعة المصرية كان الاستثناء الوحيد هم اللاجئون السياسيون من الاتحاد السوفيتي ومن المانيا النازية- مثل غولينيشف ومينورسكي وفيكينتيف وشاخت وكراوس .

ولقد قدّم المستشرقون المشورة لحكوماتهم ، سواء في احباط خطط منافسيها من الأوروبيين، أو في اخضاع الشعوب المسلمة وبسط سيطرتها عليها . وتنعكس المنافسات بين الدول الاوروبية بوضوح تام من مراجعة مراسلات وزارة الخارجية البريطانية التي تمس الجامعة المصرية . فعندما وافق عالم المصريات القديمة نيوبري على أن يخلفه في كرسيه بالجامعة الألماني يونكر أنحت وزارة الخارجية البريطانية باللائمة على سفارتها بالقاهرة في الألفاظ الآتية :

«لقد كان هذا تصرفاً سيئاً ... وانني لا اتذكر خلال أربعة أعوام من تجربتي حالة جرى فيها اهمال مصالحنا بمصر بمثل هذه الصورة التي لا تجد التبرير .. وكان لزاماً على السفارة أن تعلم أن البروفسور نيوبري الذي عهد فيه العداء الشديد للفرنسيين وتركّز كل اهتمامه على ابعادهم فحسب ، ليس هو الشخص الذي يجب أن يسمح له بإدلاء رأيه في اختيار خلفه . وقد لفتنا النظر الى هذا الجانب في شخصيته منذ اكثر من عام »[٢٣] .

وفي تعليق لها تقول السفارة البريطانية بالقاهرة :

«إن البروفسور كريسويل .. المعروف بشخصيته المشاكسة وموقف العداء الشديد من الفرنسيين ، كثرت شكواه كما هي عادته مما أسماه موقف العجز من طرفنا ازاء هذه المسألة ، وحثنا على المطالبة بأن يُعلن عن كرسي الفلسفة بالصحف البريطانية ، أو أنه في حالة اتخاذ قرار بتعيين فرنسي آخر أن نرسل بخطاب احتجاج شديد اللهجة» .[٢٤]

ويتذكر عالم الكلاسيكيات الشاعر المشهور روبرت جريفز R. Graves (توفي في ديسمبر ١٩٨٥) اجتماعاً بالجامعة المصرية :

«كان أمامي فنجان من القهوة التركية وقبعة شمسية وسجل طويل بالفرنسية يحوي وقائع الجلسة السابقة . وكنت أتحدث بفرنسية سقيمة مخاطباً زملائي البلجيك والفرنسيين دفاعاً عن موقف استاذ اللاتينية الشاب (وهو انجليزي) الذي وقف قبل ذلك ببرهة على قدميه وقد امتقع وجهه من الغضب صائحاً في لغة فرنسية أسقم من فرنسيتي أنه يرفض بشدة التبرع بمبلغ خمسين قرشاً . من أجل باقة الزهور التذكارية التي ستوضع على قبر أحد الفرنسيين (الذي توفي قبل قليل) لأنه لم يؤخذ رأيه في ذلك مسبقاً . وأعلنت من جانبي أنني لن أفعل ذلك ، هادراً بالانجليزية أنه فيما يخصني فإن جميع المتوفين من الفرنسيين عليهم أن يدفنوا أنفسهم على حسابهم» .[٢٥]

إن هذه المنافسة بين الأوروبيين تتعارض مع مفهوم التعاضد العالمي بين أهل العلم ، وتفسّر لنا لماذا لم ينعقد مؤتمر المستشرقين الدولي الا بعد عشرة أعوام من نهاية الحرب العالمية الأولى .

ولقد وضع معظم المستشرقين الذين درسوا بالجامعة المصرية خبرتهم من وقت لآخر في خدمة مصالح بلادهم في صدامها مع المسلمين وسيطرتها على بلادهم. فمن بين الفرنسيين خدم فييت بالجيش الفرنسي أثناء الحرب العالمية الأولى وكان المترجم لجورج بيكو G. Picot عند تحديده لمطالب فرنسا في أراضي الدولة العثمانية أثناء عقد اتفاقية سايكس ـ بيكو Sykes - Picot الشهيرة . أما زميله ماسينيون فقد ترجم للفرنسيين أثناء القتال بالدردنيل ومقدونيا وفلسطين. كما عمل أيضاً بالمكتب الذي أشرف على الاستيلاء على المناطق التي حددتها اتفاقية سايكس ـ بيكو من

اجـل فرنســا . وفي نوفمبر ١٩٢٠ وجد في مهمة رسمية بدمشق التي انتزعتها فرنسا منذ برهة من يد فيصل بن الحسين . وفي عام ١٩٢٣ ـ ١٩٢٤ قبل ماسينيون دعوة المقيم الفرنسي بالمغرب الماريشال ليوتي Lyautey الذي كان يعمل في تهدئة الأحوال بالمغرب ، وذلك ليقوم (أي ماسينيون) بدراسة للقوانين المشتركة بمدينة فاس .

وفيمـا يتعلق بالايطاليين فإن نللينو الذي كان فقد منصبه بالجامعة المصرية نتيجـة لغـزو ايطـاليـا لليبيا ، وافق على أن يقوم بفحص الوثائق التركية التي وضع الايطـاليـون يدهم عليهـا (بليبيا) وانشأ قلماً للترجمة بالمستعمرة الجديدة[٢٦] . اما دافيد سنتلانا فقام بإعداد موجز للقوانين الاسلامية والفرنسية من أجل السلطات الفرنسية بتونس .

ومن بين الألمـان كان شاده ومستشــرق ألمـاني آخر رفض البريطانيون قبوله مديـراً لدار الكتب المصرية ، يقومان بتقديم المشورة للضباط الألمان الذين صحبوا القـوات العثمـانية بسيناء وفلسطين وسورية[٢٧] . وهما وإن كانا في الواقع يقدمان بهـذا عونهمـا للمسلمـين ضد البريطانيين ، الا أن الوطنية الألمانية لا بد وأن كانت الدافع وراء ذلك .

امـا من بين البـريطـانيين فقد وصل الكابتن كريسويل التابع للفيلق الجوي الملكي (البـريطـاني) إلى مصـر عام ١٩١٦ . وكـان موقفه الامبريالي المتشدد الذي انعكس في التـوصيـات التي كان يشـير بهـا على السفـارة البـريطانية بالقاهرة وفي احتقـاره للقـوميـة المصرية ، مضرب الأمثال ، وأما أ.ج. اربري فقد وضع معرفته الجيدة بالعربية والفارسية في خدمة وزارة الاعلام البريطانية إبان الحرب العالمية الثانية .

ورفض الهولندي اسنوك هرخورنيه الدعوة للتدريس بجامعة القاهرة . ونظرا لعـدائـه للاســلام فإن الغريب دعوة فؤاد له. وحتى الشخص الذي عهد فيه الاعجاب الذي لا يتطـرق إليـه الشك بالمستشرقين وهو جرجي زيدان لم يستطع الا الاعتراف بأن هرخرونيه «يميل في كتابته إلى انتقاد الاسلام» [٢٨].

من هذا يتضــح لنـا أنه لم يتأس أحد من المستشرقين الذين درّسوا بالقاهرة خطى ولفريد اسكاون بلنت W.S.Blunt ذلك المواطن البريطاني الذي لم يعرف الكلل في إدانتـه لاحتـلال بلاده لمصـر ، أو الأمير الايطالي ليوني كايتاني L. Caetani الذي ضحى بمقعـده في البـرلمـان الايطـالي لمعارضته غزو ايطاليا لليبيا ، أو تلك الحالات النادرة التي اعتنق فيهـا مستشــرق ما الاســلام . فكـل من نللينـو وفييت ومـاسينيـون وكـريسـويل وهرخرونيه عاون حكومته في حربها للمسلمين واحتلالها لبلادهم . ذلك أنهم كانوا وطنيين في عهد لم يكن من السهل فيه التفرقة بين الوطنية والامبريالية .

ومثل تصرفهم لم يدهش شخصاً مثل محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق الـذي قال اننـا نحن المسلمين نعمل من اجل مصالح بلادنا و ينننا ، فعلينا ألا نتوقع من المستشرقين أن يتصرفوا بصورة مخالفة(٢٩) .

ولـيس من هدف هذا المقـال أن يضطلع بتقـويم موقف كل مستشـرق من الاسلام والامبريالية . غير أنه من الجلي أن موقف كل منهم اختلف اختلافاً بيناً عن موقف الآخـر . فشتّـان بين موقف كريسـويل الذي لم يعبأ إطلاقاً بدراسة العربية واتخـذ موقف الازدراء من القـوميـة المصـريـة، ومـوقف شخص مثل ماسينيون الذي عرف بتقـاربـه الشـديـد من الصـوفية المسلمين وبألمه للموقف المزدوج الذي اضطر الى اتخاذه من دور فرنسا الامبريالي .

محاضرات المستشرقين:

لم يكن لدى الطلبـة المصـريين الذين التحقوا بالجامعة المصرية قبل الحرب العـالميـة الأولى فكـرة ما عن موقف أسـاتـذتهم المستشـرقـين من الاستعمار ومن الاسلام . وقد حكموا على المستشرقين من استماعهم لمحاضراتهم .

وبعض المنـاهـج التي تبقت لنـا من المحـاضرات التي طبعت فيما بعد، تقدم فكـرة عن ما كان يلقيـه هؤلاء المستشـرقـون على طلبتهم المصـريين . فمثلاً نبصر اغنـاطيـوس حويـدي يصرّ على التخلّص من الفكرة القائلة بأن عرب الجاهلية كانوا «نصف همج»، وذلك بقوله :

«إن العـرب ، وبصـورة خاصة عرب الحيرة وغسّان ، شاركوا في الحروب التي نشبت بين ايران وبيزنطة وكانوا على معرفة جيدة بهاتين الدولتين وبحضارتيهما ... ومن الخطـل اعتبـار قواد مسلمين مثل خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة.. من الجهلة أو نصف الهمـج ، أو اعتبـار جنـودهم كبـدوٍ انتظمـوا في الجنـديـة بين عشيـة وضحاها»(٣٠) .

غير أن الثمن الـذي طلبـه جويـدي لاعـادة تقويم عرب الجاهلية كان باهظاً بالنسبـة لبعض مستمعيـه ، وذلـك بمطالبتهم الاعتراف بأن العرب يدينون بالكثير للبيـزنطيـين والفـرس (وجميعهم من الهنود الأوروبيين ، رغماً من أن جويدي على خلاف رينـان E. Renan لم يضغـط كثيراً على هذه النقطة)، أو لليهود والنصارى في المسائل الدينية .

وكمواطنه جويدي فإن نللينو أولى لموضوع محاضراته دقة متناهية ، معتمداً في ذلـك على المنهـج الفيلولـوجي . فقـد قدّم دروسـاً في الفلك والفيزياء عند العرب،

وشفع ذلك بدروس في تاريخ الأدب العربي . وكان يتناول لفظاً مثل «الأدب» ويتتبع معانيه في جميع المعاجم العربية القديمة وغيرها من المصادر ، موثقاً كل خطوة بالاشارة المفصّلة الى مراجعة[٣١] .

أما ماسينيون الذي كان أميل إلى الموضوعات الدينية ، فقد استهل اولى محاضراته في «تاريخ الاتجاهات الفلسفية في الاسلام» بالبسملة.[٣٢] وتحاشى الكلام عن شخصيات الفلاسفة أو الأسلوب الجغرافي التاريخي الذي يعالج الحديث على مدرسة بعد الأخرى ، بل نظم دروسه حول التصورات الفلسفية الرئيسة : فكرة العدد (الرياضيات)، والمادة (الطاقة)، والحياة (البيولوجيا) ، والنفس (البسيكولوجيا والتصوف)، والمجتمع (السوسيولوجيا)، الله (الانثولوجيا). وكان يحلّل المناهج المتعارضة لعلماء الكلام والفلاسفة ، وخطر العواصف القومية (الشعوبية الجديدة) على مبدأ العالمية Universality ، والعلاقة بين الدين والفلسفة . وقد كشف منذ العشرينات من عمره عن تلك المقدرة الفائقة واتساع الأفق الذي اتصفت به آثاره التالية. فالاشارات إلى اللورد كلفن Lord Kelvin ومتشلسون Michelson وميل J.S. Mill ودي فريس de Vries ومندل Mendel ولامارك Lamarck وبرجسون Bergson تقف جنباً إلى جنب مع إشاراته الى الغزالي وابن رشد . ويبيّن ماسينيون بوضوح أن العرب تقهقروا في مجال الفلسفة والعلوم عقب منجزاتهم الكبرى المبكرة ، ولكنه أعرب عن أمله في أن تعاون الأفكار الجديدة القادمة من الغرب في إيقاظهم ليساهموا من جديد في ذلك الميدان .

وعل خلاف ماسينيون الموسوعي كان دافيد سنتيلانا يتقيّد بحدود موضوعه بعناية كبرى ، وهو أثر الفلسفة اليونانية على الفكر الاسلامي [٣٣]. ويبدو أن خلفه دي جلارزه فصل بين الفلسفة الاسلامية والفلسفة الغربية ، فركّز اهتمامه على الثانية . لذا عالجت محاضراته الكلام على الفلسفة الغربية في العهد الكلاسيكي المتأخر في عهد النهضة ، وأيضاً علي بسكال وكانث[٣٤] .

رد الفعل المصري ازاء المستشرقين:

لم يعرف عن فؤاد مديراً للجامعة وملكاً فيما بعد اهتمامه الكبير بعواطف المسلمين ازاء المستشرقين . وكانت محبته للايطاليين واختلاطه بالطبقة العليا من المجتمع الأوروبي وغياب أي رباط له مع زعماء القومية المصرية ، كل هذا أهّله لبسط حمايته على المستشرقين وغيرهم من الاوروبيين. وقد أصر على تعيين المستشرقين بمجمع اللغة العربية وبالجامعة . كما وقع اختياره على المؤرخين الأوروبيين لنشر الوثائق المتعلقة بالأسرة المالكة بمصر في القرن التاسع عشر ، ولتدوين تاريخ مصر في عدة أجزاء ابتداء من الفراعنة.[٣٥] ورغماً من ذلك فإن هذا

الأمـير الـذي لاح وكأنـه من رجـال النهضـة العلمـانية لم يخل في حقيقة الأمر من طموحات نحو الخلافة الاسلامية ، فشجع بعض ذوي الوعي السياسي من الأزهريين .

غير أن بقيـة المصـريـين اتخـذت مواقف مختلفة من الأساتذة المستشرقين فالمحـاضرة الاستهـلاليـة لاغنـاطيـوس جويدي تركت الطالب الأزهري طه حسين وزمـلاءه في حالـة ذهـول[٣٦] . حقـاً كان صوت المحـاضر ضعيفاً ، لذا اضطلع أحد الطلبـة بإعـادة ألفـاظـه بصـوت عال «كما هو الحال تماماً بالمساجد» حتى يتمكن الجالسون في الصفوف الخلفية من متابعة كلامه. غير أن بيت القصيد كان أسلوبه غير المعهـود لهم في معـالجتـه لموضوعات محاضراته التاريخية . فليس هناك شيء في تجـاربهم أعدّهم ليعلموا بوجود موضوع يحمل عنوان «أدب الجغرافيا والتاريخ» . ويقـول احمـد امـين ان فكرة تصنيف الأدب العربي الى عصور مختلفة مع تحديد خصائص كل عصر وتحليل سير مؤلفيه ، لم يكن معروفاً بمصر لحين وصول المستشرقين.[٣٧] .

وصحب شعور الطرافة والاعجاب ضرب من الدهشة عندما سمع العرب لأول مرة اللغـة العـربية على لسان المستشرقين، فأحد زملاء طه حسين لاحظ في ترجمات ماسينيـون عدم تمسـك بقـواعـد اللغـة العربية ، كما وجد صعوبة في تتبع اللهجة المغربية لسنتيلانا. غير أن رد الفعل كان التعجب عند سماعه لجويدي يحاضر لأول مرة بالعـربيـة . كمـا اعجبـوا بتملك فييت لنـاصية العربية . ويشير طه حسين إلى «اللكنة التونسية اللطيفة» لدى سنتيلانا.[٣٩] وقد منحت صحيفة عربية أعلى درجات التهنئة لنللينو بقولها إنه يحاضر بالعربية وكأنها لغته بالميلاد.[٤٠] .

فلمّـا قلّت بالتـدريـج حالـة الـدهشـة والجدّة برؤية أوروبي يتكلم العربية الفصحى ، شرع المستمعون يصنفون أنفسهم في معسكرين أحدهما مؤيد، والآخر معـارض . فالأزهـريـون كثـيراً ما لجأوا الى مهاجمة ما تصوروه نيلاً من الاسلام . فمقـارنة جويدي للروايات السريانية المبكرة بصدد قصة «أهل الكهف» مع الرواية الـواردة في القـرآن أثـار احتجاج الأزهريين والدراعمة معاً[٤١] . كما وأن محاضرات سنتيـلانـا عن أثـر الفلسفـة اليونانية على علم الكلام الاسلامي تسببت في إحداث بعض الهرج[٤٢] . وكان بمقدوره ان يتخارج من ذلك لو اقتصر في حديثه على المعتزلة وابن سينـا وابن رشـد لأن المتشـددين من أهل السنة عدّوهم زائغين على أية حال . أما أن يتعرض للكلام عن الأشعري فقد أقحم نفسه في مأزق خطير.

وأولئـك الطلبـة الـذين أحسّوا ميلاً نحو المستشرقين ، قدروا شيئين لديهم ـ جدة المـوضـوع ، ومنهجهم الحديث في التدريس والبحث . وطه حسين الذي افتتن

بكل هذا يصف لنا عرض ميلوني لتاريخ سومرولقوانين حمورابي ولتاريخ الأشوريين بأنها موضوعات «لم تناقش بمصر من قبل»[٤٣] بل إن أحد تلامذة ليتمان تعلم ما يكفي من السريانية ليلقي خطبة قصيرة بتلك اللغة في حفل عمل لتكريم الأستاذ في نهاية العام الدراسي ، كما أن طالباً آخر نسب إلى ليتمان أنه علمه العبرية في عام واحد[٤٤] . وكانت مفاجئة للطلبة عندما اكتشفوا أن العلم بالعبرية والسريانية من شأنه أن يعمق معرفتهم بلغتهم العربية نفسها . ولعل أكثر ادهاشا لهم من جدة المادة كانت نظرة المستشرقين إلى المعرفة كمجال قابل للاتساع المستمر ، وتمسكهم بالمنهج العلمي في متابعة بحوثهم التي اتصفت بالأصالة . وقد لاحظ أحد زملاء طه حسين بالكثير من الاعتزاز أنه كان الوحيد إلى جانب بعض الطلبة الأجانب الذي درج على تقييد ألفاظ الأساتذة[٤٥] . أما بقية زملائه من المصريين فقاطعوا محاضرات نللينو وليقسروه على توزيع نسخ محاضراته . وكان رد زميل طه حسين ذاك أنه لا فائدة من الجامعة لو لجأ الطلبة إلى الحفظ والاستظهار وكأنهم مازالوا بالمدرسة الابتدائية .

وعبد الرحمن عزّام الذي درس في البداية بانجلترا ثم قام بالتدريس كمحاضر بجامعة القاهرة عندما كان توماس ارنولد أحد أساتذتها ، أعرب عن تعجبه من استعداد العلامة البريطاني ليعترف بعجزه عن الاجابة على بعض استفسارات المستمعين وايضاً لحثّه لهم على نقد محاضراته[٣٦] . وكما هو معلوم فإن طه حسين نفسه اعتنق عن وعي ذاتي المنهج الديكارتي في الشك المنظّم خلال دراسته[٤٧] .

وقد بدأ أحمد أمين دراسته بالأزهر ثم درس ودرّس بمدرسة القضاء الشرعي التي كانت تعدّ القضاة الشرعيين والتي شابهت دار العلوم في اتباعها منهجاً خليطاً في التدريس . ويصف لنا أحمد أمين أسلوب الدراسة بالأزهر في الألفاظ الآتية :

«قرأ (الاستاذ) المتن والشرح ففهمتهما ولكنه سبح بعد ذلك في تعليقات واعتراضات على العبارة واجابات على الاعتراضات لم أفهم منها شيئاً .. (و) لم استستغ أبداً طريقة الأزهر في الحواشي والتقارير وكثرة الاعتراضات والاجابات»[٤٨]

●●●

وفيما بعد ضمّن أحمد أمين من وقت لآخر في برنامجه الدراسي الحافل محاضرات جويدي ونللينو وسنتيلانا بالجامعة ، وهو يصفها في الألفاظ الآتية :

«رأيت لوناً من ألوان التعليم لم أعرفه : استقصاء في البحث وعمق في الدرس وصبر على الرجوع إلى المراجع المختلفة ومقارنة بين ما يقوله العرب وما يقوله الأفرنج ، واستنتاج هادىء رزين من كل ذلك» .

وفي عام ١٩٢٦ وجد طه حسين منصباً لأحمد أمين بالجامعة المصرية، وهناك اكتشف أحمد أمين أن:

«ميزة الجامعة عن المدرسة هي البحث ، فالمدرسة تعلم آخر ما وصل إليه العلم والجامعة تحاول أن تكتشف المجهول من العلم ، فهي تنقد ما وصل إليه العلم وتعدّله وتحلّ جديداً محل قديم ، وتهدم رأياً وتبنى مكانه رأياً .. هذا ما فهمته في السنة الأولى من تدريسي: في الجامعة، ـ فهمته مما سمعته ـ من أساتذة من الأجانب قاموا ببحوث مختلفة جديدة ، كل في فرعه . ومن مخالطتي في الجامعة لبعض المستشرقين أتعرف منهم ما يعملون ، ومن قليل من الأساتذة المصريين يتبعون خطتهم ويسيرون على منهجهم» .

وكان أحمد أمين قد اكتشف من قبل أهمية العلم باللغات الأجنبية وهو مازال بمدرسة القضاء الشرعي :

«فهؤلاء أساتذتي العصريون يدلّون بمعرفتهم لغة أجنبية ـ هذا يدل بلغته الفرنسية ، وهذا يدلّ بلغته الانجليزية ، وكل يعتمد عليها في تحضير دروسه ، ويذكر لنا أنها تساير الزمان ، حتى إن الكتاب المؤلف في علم منذ عشر سنوات لا يصلح أن يكون مرجعاً اليوم إلا بعد التعديل ، لا كالكتب الأزهرية التي يدعي أنها تصلح لكل زمان ومكان ، ولأن هؤلاء الأساتذة كانوا يقولون دائماً إن من اقتصر على اللغة العربية يرى الدنيا بعين واحدة ، فإذا عرف لغة أخرى رأى الدنيا بعينين» .

وفي عام ١٩٢٩ أجرى طالب حديثاً صحفياً مع ثلاثة من المستشرقين كانوا يدرّسون آنذاك بالجامعة ، ختمه بقوله :

«بهذا اختتم حديثي مع الاساتذة المستشرقين الكبار. ومما لا شك فيه أن كلية الآداب سعيدة بوجودهم بين ظهرانيها لتعليم المصريين وتعريفهم بأصول العربية وتاريخها وتراثها ـ وتستند معارفهم على «البحث والتقصي لا على التعصب الديني والحفظ والاستظهار»[٤٩] .

غير أنه ابتداء من العام الذي أجري فيه ذلك الحديث كان الأثر القوي للمستشرقين بالجامعة في طريقه الى الزوال. فقد شرع المصريون من أمثال طه حسين وعبد الرحمن عزّام واحمد أمين يحلّون محلهم في التدريس بالجامعة . وقد دعا نللينو ذات مرة سهير القلماوي ـ تلميذة طه حسين المفضّلة في الثلاثينات ـ حفيدته الفكرية، غير أن العالمة المصرية تذكر أنه في زمنها اقتصرت محاضرات المستشرقين بالقسم على الجانب اللغوي وأن أثرهم عليها وعلى معاصريها كان ضئيلاً للغاية[٥٠] .

وإذا تركنا جانباً أقسام الآثار واللغة العربية واللغات الشرقية (بكلية الآداب) فإن الأوروبيين الذين ظلوا يلعبون دوراً متضائلاً في الخمسينات لم يكونوا من المستشرقين . فقد حاضر اساتذة من السوربون عن ديكارت Descartes أو كونت A. Comte بالفرنسية ، كما درّس علماء الطبيعيات (Scientists) من الانجليز الكيمياء والفيزياء باللغة الانجليزية. وأكثرهم لم يكن لهم علم بما أسهم به العرب في تلك الميادين. ولم تتكرر بعد ذلك تلك الفَوْرة الجريئة في مجال تدريس الفلسفة الإسلامية والغربية باللغة العربية للطلبة العرب. على أي حال فقد تعرض العلم آنذاك للتجزئة ، وبلغ مصر عصر التخصص الذي احترم من قبل الجامعات الاوروبية .

مسألة جرجي زيدان

زيدان

وثمة جانب طريف للقصة يمس أولئك الذين اعتنقوا منهج البحث لدى المستشرقين الأوروبيين ، كما يمس بعض الاستقراءات التي وصلوا اليها . وفي هذا الصدد تبرز أمامنا بوضوح في تاريخ الجامعة المصرية أربع قضايا اتصفت بالهجوم الصاخب على أربعة ممن استعاروا مذهب الاستشراق -وهي القضايا المتعلقة بجرجي زيدان (١٩١٠) ومنصور فهمي (١٩١٣) وطه حسين (١٩٢٦) ومحمد احمد خلف الله (١٩٤٧) . ولقد كان المستشرقون في أعين المنتقصين لهم سيئين بما فيه الكفاية ، ولكن العدو هو العدو على أية حال .

وقد انفجرت القضيتان الأوليان قبل الحرب العالمية الأولى ، والجامعة تكافح لتقف على قدميها . في تلك الأثناء كان خلف كرومر بمصر وهو الدون غورست Eldon Gorst يسعى دون توفيق لتخفيف حدة الاضطرابات الوطنية ، في محاولة للتفاهم مع الخديوي عباس الثاني . غير أن حدة التوتر بين المسلمين والأقباط انفجرت عندما أصبح بطرس غالي رئيساً للوزراء ، وهو ذلك القبطي الذي ترأس المحكمة التي أدانت متهمي دنشواى . وقد ساقت مساندة بطرس غالي لقانون صحافي جائر ثم مدّه لامتيازات شركة قناة السويس ، إلى تهيئة الظروف التي أدت إلى اغتياله في فبراير ١٩١٠ . وعدّ الكثيرون قاتله الوردانى بطلاً قومياً ، وانعقد مؤتمر للأقباط لتحديد شكاوي الجالية القبطية فردّ المسلمون بمؤتمرهم الخاص بهم . وعاون الرئيس الأميركي السابق تيودور روزفلت Theodore Roosevelt في اذكاء اللهيب عند زياته لمصر وخطبته في الجامعة المصرية التي أشاد فيها بالحكم البريطاني في مصر وشهّر فيها بزعماء القومية المصرية وأدان الوردانى .

وفي بداية يونيو ١٩١٠ ألقى روزفلت خطبة بلندن أنحى فيها باللائمة على ضيوفه البريطانيين على موقف الضعف الذي أظهروه بإزاء الاضطرابات بمصر ، وفي نهاية ذلك الشهر أعدم الورداني بمصر . في هذه الأثناء لم يلاحظ الناس أن الجامعة المصرية قدّمت الدعوة لجرجي زيدان ليلقي محاضرات في التاريخ الاسلامي في الفترة الأولى من العام الدراسي .

وزيدان أصله من الارثوذكس الذين هاجروا من لبنان إلى مصر ، وكان تلقى تعليمه بالكلية البروتستانتية السورية ببيروت (التي أصبحت فيما بعد الجامعة الأميركية ببيروت) ، ثم شرع في إصدار مجلته المشهورة «الهلال» بالقاهرة منذ عام ١٨٩٢ . وعلى غرار زملائه الصحفيين من أصل لبناني مثل يعقوب صروف وفارس نمر فقد جهد زيدان وهو بمصر في نقل الثقافة الغربية إلى العرب كوسيلة لاحياء الثقافة ببلادهم، ولكنه لم يصبح مدافعاً صريحاً عن الاحتلال البريطاني كما هو الحال معهما .

وكان زيدان اكتشف الاستشراق الاوروبي في قاعة المطالعة بالمتحف البريطاني (بلندن) عام ١٨٨٦ ، وانتهى به المطاف أن أبصر المجتمع العربي والاسلامي من منظار المستشرقين إلى حد كبير . وعاب زيدان على المؤرخين العرب الأوائل انهم اكتفوا بتسجيل الأحداث دون الربط بينها أو تحليل الأسباب التي تقف وراءها . كذلك رفض التاريخ الذي يعج بالصخب واعمال العنف ، وصرح بأن «تاريخ الامة الحقيقي انما هو تاريخ تمدنها، وحضارتها لا تاريخ حروبها وفتوحها، وخصوصاً ما تعوده مؤرخو العرب في تاريخ الاسلام»[٥١] كذلك غمر نفسه في دراسة اللغات التي من شأنها ان تكشف له عن أسرار الماضي ـ مثل العبرية والسريانية واللاتينية ، هذا الى جانب لغته العربية ـ واللغات الأخرى الضرورية للتعرف على أعمال المستشرقين مثل الانجليزية والفرنسية والألمانية. ثم استغل معرفته الجديدة ليخرج روايات تاريخية في ماضي الاسلام ، ويدوّن مؤلفاته الطموحة مثل «تاريخ التمدن الإسلامي» و «تاريخ آداب اللغة العربية[٥٢] .

وذات يوم من عام ١٩١٠ ، وذلك قبل قليل من بداية العام الدراسي ، قرأ زيدان عرضاً بصحيفة «المؤيد» اليومية قرار الجامعة بالاستغناء عن خدماته خشية اثارة الاعتراضات من جانب المسلمين . وبالنظر للتوتر الديني الذي انبعث في الأشهر السابقة لذاك ، فإن هذا القرار لم يدهش أحداً. ووكدّ مجلس الجامعة الذي ضم الفرنسي ماسبيرو وأحد الأقباط صحة الخبر الذي نشرته «المؤيد»، معترفاً بشيء من الحرج بفضل زيدان ومعرفته العميقة وخشيتهم من إثارة «مشاعر سواد الشعب المسلم إذا ما تم تعيين غير مسلم لتدريس التاريخ الإسلامي»[٥٣] . وقسر

هول المفاجأة زيدان على الانسحاب دون إرادته ، ولم يتسلم من الجامعة أكثر من مائة جنيه تعويضاً عن المحاضرات التي كان اعدها والتي احتفظت الجامعة بحقوق طبعها[٥٤]

وحلّ محل زيدان في آخر لحظة الدرعمي محمد الخضري . ولم يكن الخضري على معرفة وثيقة بأعمال المستشرقين ، لذا فإن مجلس الجامعة نصّ على استخدامه «بشريطة أن يطبق منهج البحث العلمي الحديث»[٥٥] . وعندما كان طه حسين طالباً بالجامعة لم يأخذ شيئاً على الخضري ، وان أبصر في تعليقاته على التاريخ الأوروبي شيئاً من الضحالة واعتماداً على الكتب المدرسية وحدها [٥٦] .

ونظرة إلى مصنف زيدان «تاريخ التمدّن الاسلامي» توضّح لنا لماذا أثار بعضاً من عدم الرضا لدى أهل العلم من المسلمين . فزيدان وان دفع عن النبي تهمة الرياء ونفى أن الحضارة الاسلامية كانت مجرد استيعاب لحضارتي الفرس والروم السابقتين عليها[٥٧] ، كما وكدّ أن محمداً اعتقد اعتقاداً جازماً في صدق رسالته وأن الحضارات الأولى بالهلال الخصيب بما في ذلك حضارات حمورابي وابراهيم كانت عربية بمعنى الكلمة ، إلّا أنه تابع مقالة المستشرقين في أن عرب الجاهلية أخذوا عن اليهود فكرة الحج والضحية ونظام الزواج والطلاق، الأمر الذي مسّ أحاسيس المسلمين في الصميم . ذلك أن إصرار المستشرقين على البحث عن جذور الاسلام في اليهودية والنصرانية أمر لا يقبله أحد من المسلمين . ورغماً من أن زيدان جعل الحماس الديني عاملاً . من عوامل نجاح الفتوح الاسلامية الأولى ، إلا أنه أضاف إليه عوامل أخرى مثل مهارة العرب في ركوب الإبل والخيل ومراس قادتهم في شئون القتال وكراهية النصارى واليهود لمضطهديهم البيزنطيين ومعرفة العرب طويلة الأمد بجيرانهم الروم والفرس . وقد عدّ المسلمون هذه الأسباب الدنيوية ليست بذات أهمية في نجاح الفتوح الاسلامية ،مهما كانت وجاهتها ، وأن فيها انتقاصاً من القدرة الالهية في أسوأ الأحوال .

وكان من أشد معارضي زيدان مهاجر سوري آخر هو الشيخ رشيد رضا . وقد قدم رشيد رضا إلى القاهرة ليتتلمذ على الشيخ محمد عبده، إلا أنه تفهم أفكار الإمام بطريقة سلفية خالفت فهم تلامذته الآخرين الذين كانوا أكثر علمانية . ويعد رشيد رضا من أسلاف «الاخوان المسلمين» .

وفي عام ١٩١٢ نشرت مجلة رشيد رضا وهي «المنار» هجوماً عنيفاً على زيدان شنّه العلامة الهندي المسلم الشيخ شبلى النعماني[٥٨] . اتهم فيه زيدان بالعداء للعرب والاسلام ، وأنه لم يمتنع عن الانتقاص من النبي والخلفاء الراشدين إلا لأنه

الاستاذ جويدي

أمين الخولي

سعد زغلول باشا

لم يجسر على ذلك، فوجه هجومه عل بني أمية بابداء مساوئهم لأنهم عرب وحابى بني العباس لأنه عدّ دولتهم فارسية في الأساس . وأضاف رشيد رضا إلى هذا اتهامه زيدان بالجهل بعلوم الاسلام ، وأن هذا جعله غير مؤهل لتدوين تاريخ الاسلام .

ولقد كان استغناء الجامعة عن خدمات زيدان ضربة شديدة له وبخاصة أنه عدّ الجامعة وليدة فكره ، ذلك أن زيدان ادعى على الدوام أن دعوته في «الهلال» عام ١٩٠٠ لانشاء جامعة مصرية حديثة كانت هي الأولى من نوعها . ولعله محق في هذا أو قريب منه، وإن لم يأخذ بزعمه أيُّ مؤرخ مصري قبل عام ١٩٨٣.[٥٩] أما أنصار الملكية فقد أصروا على أن الدور الرئيس في إنشاء الجامعة إنما يعود إلى الأمير أحمد فؤاد ، هذا على حين أشار القوميون إلى دعوة مصطفى كامل إلى انشاء الجامعة ، ووكدّ الوفديون دور سعد زغلول ومحمد عبده وقاسم أمين في هذا الصدد . غير أن الجميع يستبعد مثل هذا الدور للورد كرومر الذي ينعتونه بالنذل . ومن يريد البحث عن دور ايجابي لبريطاني ما ، فلعله يستطيع لفت النظر إلى زعم ج. إ. مارشال J.E. Marshall أحد قضاة المحاكم بمصر أنه أول من اقترح الفكرة عام ١٩٠٤ في مقال لم يسمح كرومر بنشره . ولربما يمكن إكمال الحلقة إذا ما أشار أحد المنتصرين للأرمن إلى قول يعقوب ارتين عام ١٨٩٤ إن مصر استوفت جميع الشروط لقيام جامعة بها .

وفي عام ١٩٦٨ أعاد المؤرخ النابه حسين مؤنس طبع مصنف زيدان «تاريخ التمدن الاسلامي» وزوده بمقدمة تفيض بالاعجاب بزيدان دعاه فيها «عمدة مؤرخي العرب على أيامه» ، غير أن حسين مؤنس لا يشير في كثير أو قليل إلى ادعاء زيدان ان الجامعة وليدة فكره كما يتجاهل رفض الجامعة لمحاضراته مكتفياً بالقول «ولكن الظروف حالت بينه وبين إلقائها»[٦٠] .

وتوفي زيدان عام ١٩١٤ وما زال يحز في نفسه رفض الجامعة له . ولم يحدث بين عامي ١٩٠٨ و ١٩٢٥ لغير مسلم أن تولى تدريس التاريخ الاسلامي بها ، رغماً من أن المستشرقين اضطلعوا بتدريس موضوعات أكثر حساسية مثل الفلسفة الاسلامية والأدب العربي . ولئن كان تدريس الموضوعات العربية على يد المستشرقين الاوروبيين شيئاً مؤلماً بما فيه الكفاية ، فلعل تدريسها على يد ذمّي متمرد شيء غير مقبول البتة [٦١] .

مشكلة منصور فهمي

بعد ثلاثة أعوام من قضية زيدان أحنت الجامعة هامتها مرة أخرى تحت تأثير السلفيين . غير أنه في هذه المرة لم يكن للأمر علاقة بالتوتر الديني بين الأقباط والمسلمين ، أومسّ مسيحياً من الشرق العربي . ولم تثر المسألة اضطراباً سياسياً واضح المعالم . ذلك أن خلف غورست في منصب القنصل العام لبريطانيا كان اللورد كتشنر Lord Kitchener ذو القبضة الحديدية الذي بسط الهدوء بالبلاد لبعض الوقت، وإن كان هدوءاً فوق السطح فحسب. في هذه المرة لم يحدث أن كان الانضمام إلى صفوف المستشرقين من ذِمّي متمرد ـ وهو أمر يدعو في حد ذاته إلى الرثاء ـ، بل من طرف زميل مسلم . ذلك أن منصور فهمي كان ألمع طلبة الحقوق عام ١٩٠٨ عندما اختارته الجامعة المصرية للدراسة بفرنسا لتدريس الفلسفة عند عودته . وقد قام ماسيبرو بتقديم منصور فهمي للعلامة المرموق ليفي ـ برول Levy-Bruhl الفيلسوف المعروف بنشاطه في مجال السوسيولوجيا (علم الاجتماع) . وفتحت باريس لمنصور فهمي عالماً جديداً ، وتركت عليه أثراً كبيراً «أعوام الدراسة بالسوربون ، المفعمة بذكرى الحي اللاتيني التي لا تنسى» والمعارف المفيدة التي جعلت مِنيّ روحاً طليقة» .[٦٢] .

هذه الروح الطليقة لم تلبث أن ارتطمت سريعاً بواقع الحياة . فقد نما إلى علم القاهرة أن اطروحة منصور فهمي التي تحمل عنوان La Condition de la femme dans la tradition et l'evolution de Islamisme . (أي تطور وضع المرأة في تقاليد الاسلام وفي تاريخه) فيها نيل من الاسلام فأبرق المسئولون بالجامعة المصرية الى باريس يطلبون تأجيل مناقشة الاطروحة التي حدد لها أول ديسمبر ١٩١٣، ولكن المناقشة جرت في أوانها ونال منصور فهمي اجازة الدكتوراه بامتياز، وبعد أربعة أيام من هذا اجتمع مجلس الجامعة لتقدير الاضرار . وشارك في الاجتماع ماسيبرو وعلى بيك بهجت ، وتغيب اثنان من الذين اصبحوا بالتالي من رؤساء الوزراء بمصر وهما حسين رشدي وعبد الخالق ثروت .

وقرّ رأي المجلس على الابراق الى باريس برجاء ارسال جميع نسخ الاطروحة رأساً الى الجامعة المصرية ، التي اخذت على عاتقها تكاليف الطبع وأيضاً تكاليف بعثة منصور فهمي ، وصدر الأمر الى منصور فهمي بالعودة الى ارض الوطن ، كذلك أصدر مجلس الجامعة قراراً يوجب الحصول على موافقته المسبقة من طرف كل طالب بعثة مصري على موضوع رسالته وأيضاً على الاطروحة الكاملة قبل تقديمها الى الجامعات الاوروبية . وفي يناير ١٩١٤ فصلت الحكومة المصرية منصور فهمي من الخدمة وألغت قرار تعيينه . وظلت الجامعة دون معلم للفلسفة لمدة عام، قبل أن تعين المستشرق الاسباني الكونت دي جلارزه للاضطلاع بهذه المهمة.[٦٤] .

وتذكرنا الضجة التي اثيرت حول اطروحة منصور فهمي بما حدث لقاسم امين في بداية القرن ، ثم ما حدث بالتالي لطه حسين عام ١٩٢٦ . وكان قاسم أمين قاضياً ومن اتباع المصلح الكبير الشيخ محمد عبده ، ولكنه صدم مشاعر المسلمين بكتابين نادى فيهما بتحرير المرأة . ولم يغفر لقاسم أمين استشهاده بالآيات القرآنية والطابع الديني لحججه في تهدئة ثائرة منتقديه ، الذين أبصروا في كتبه صدى واضحاً لموقف اعداء الاسلام الغربيين من الاسلام .

وعندما شبّ منصور فهمي كانت المقاهي ودور الصحف بالقاهرة تطنّ بأخبار قاسم أمين . وتوفي قاسم أمين عام ١٩٠٨، أي في نفس العام الذي رأت فيه الجامعة المصرية النور والتي عاون في انشائها . وهو العام نفسه أيضاً الذي وقع فيه الاختيار على منصور فهمي ليذهب في بعثة الى فرنسا . وأحد معاصري منصور فهمي بالسوربون وهو محمد حسين هيكل (باشا) يعكس في روايته «زينب» ايضا تأثير قاسم امين . وكان منصور فهمي ومحمد حسين هيكل على معرفة ببعض أيام الدراسة بباريس ، ولربما تناقشا حول قضية المرأة ضمن مسائل أخرى[٦٦] .

وختم منصور فهمي مناقشة أطروحته بثناء عاطر للمدافع الأول عن حقوق المرأة قاسم أمين، مؤكداً أن قضيته سيكون نصيبها النجاح المحتم : «وإنني أحني هامتي احتراماً لذكرى الكاتب المصري قاسم أمين الذي كرّس حياته لقضية المرأة والذي اختطفته المنون من بين ظهرانينا قبل ان يبصر ثمرة مجهوداته التي ستأتي أكلها حتماً نتيجة لحركة التقدم السائرة بالبلاد» .[٦٧] .

من هذا يبدو جلياً أن أطروحة منصور فهمي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بظروف المجتمع المصري لتلك الآونة ، وأن مصادره الأولى كانت عربية إسلامية مثل القرآن الكريم ومجموعات الأحاديث وكبار المؤلفين القدامى مثل الجاحظ والغزالي . غير أن منصور فهمي اتبع في تحليله لمادته منهج علماء الغرب الذين كان معظمهم من

منصور فهمي

محمد حسين هيكل

قاسم امين

المستشرقين، مثل المشرف على رسالته «ليفي برول، ومثل لامنس H. Lammens وادنبوك هرخرونيه ولوبون G. Lebon ورينان ودوزي R. Dozy وفلهاوزن J. Wellhavusen وبيرون Perron وجميع هؤلاء على ما عهد فيهم من المعرفة الواسعة، عرف عدد منهم بعدائه للاسلام ، وقد احتوى الجو الفكري الحر بالضفة اليسرى للسين منصور فهمي فوقع ببراءة في المشاكل التي كانت في انتظاره عند عودته إلى مصر .

وكما هوالشأن مع محمد عبده وقاسم أمين فقد بدأ منصور فهمي بالتمييز بين لبّ المعتقدات الاسلامية الأصيلة وبين التراكمات التي تجمعت بالتالي واكتسبت لنفسها فيما يبدو ضرباً من القداسة بوصفها جزءاً من الاسلام . ولكنه حتى في هذا نبصر منصور فهمي يذهب بكثير أبعد مما ذهب إليه محمد عبده ، ويتابع المستشرقين في تحليلهم الخاطىء للاسلام : فهو يطلق على اللب اسم «التعاليم المحمدية Mahometisme ، أما التراكمات المتأخرة فيدعوها «التعاليم الاسلامية» Islamisme [٦٨] غير أن هذا التحليل الذي لا يستند على أساس ما ، لم يلبث أن أفسح له المجال ليقع في هوة سحيقة عندما جسر منصور فهمي على توكيد الزعم القائل بأن وضع المرأة العربية تدهور بمجيء الاسلام . ونحى في منهجه التحليلي منحى كثير من المستشرقين الذين عادَوْا الاسلام .

هذه التحليلات كانت شيئاً عادياً في المصنفات الغربية لذلك العهد، غير أنها بالنسبة للمسلمين لم تكن سوى كفر صريح واجتراء على الدين . ولا يتسع المجال ها هنا للحديث عن التحليل السوسيولوجي (الاجتماعي) والتاريخي الذي لجأ إليه منصور فهمي لتفسير ظاهرة الحجاب ومنع الخروج بالنسبة للنساء المسلمات ، وذلك من الوجهة النظرية والواقعية وفي الأقطار المختلفة والعهود المختلفة وبين الطبقات المختلفة . فالمسلمون من أهل الورع صدمتهم الفقرات المسيئة للعقيدة بكتابه ، وتجاهلوا ما دون ذلك .

ولقد عاش منصور فهمي بطريقة ما السنوات الصعبة التي أعقبت عودته إلى مصر فعمل لبعض الوقت سكرتيراً لجمعية الهلال الأحمر، وكتب بالأهرام وغيرها من الصحف القاهرية . وفي عام ١٩٣٠ جمع مقالاته في كتاب بعنوان «خطرات نفس» . وكانت الحرب العالمية الأولى وثورة ١٩١٩ قد حولت أنظار الناس عن زيغه ، فاستخدمته الجامعة بهدوء ليدرس الفلسفة الغربية والعربية. ولم يحدث ما يعكر الصفو أو يثير الصعوبات في وجه ذلك ، وبهذا انضم في عام ١٩٢١ الى طه حسين وكثيرين غيره كأستاذ منتظم بكلية الآداب بمرتب قدره أربعمائة جنيهٍ مصري في العام .[٦٩] ورغماً من أنه ظل بالجامعة لخمسة عشر عاماً أخرى إلا ان المحنة التي مرت به هزّت من ثقته في نفسه ، فلم ينشر إلا شذرات صغيرة من وقت لآخر . ويصورّه لنا القصصي المصري نجيب محفوظ في شخصيته الدكتور ابراهيم عقل ، وذلك في روايته «المرايا» .

العاصفة التي أثيرت حول طه حسين:

لعل الضجة التي أثيرت حول كتاب طه حسين «في الشعر الجاهلي» كانت أكبر معركة أدبية في تاريخ الأدب العربي للقرن العشرين . وما يهمنا ها هنا هو دور طه حسين في الجامعة . ومما لا شك فيه أن السلفيين كانوا على قناعة من أن الأمور تسير من سيء إلى أسوأ: ففي البداية هاجم الاسلام المستشرقون ، وتلا ذلك ذِميٌّ من العرب (زيدان) ، وتبع هذا مسلم (منصور فهمي) ، وتوّج ذلك الآن على يد خرِّيج من الأزهر (طه حسين) .

وأساس القضية هو نفس الأساس الذي استندت عليه قضيتا زيدان ومنصور فهمي : وهو هل من الممكن استعمال منهج المستشرقين النقدي في دراسة أشياء مقدّسة لدى المسلمين! وثمة روابط ربطت بين هذه القضايا الثلاث ، مثال ذلك أن طه حسين وهو طالب بالأزهر حدث «وأن ترك جانباً دراساته ليكمل قراءة رواية من روايات زيدان التاريخية .[٧٠] وبغض النظر عن رأي النقاد الآخرين ، فإن طه حسين أولى هذه القصص التاريخية لزيدان مكانة مهمة في تاريخ الأدب العربي الحديث ، كما راجع أيضاً آثاره التاريخية غير القصصية . ويمثل محمد الخضري وهو ذلك الدرعمي الذي حلّ محل زيدان المبعد بالجامعة المصرية حلقة أخرى بين قضيتي زيدان وطه حسين ، لأنه شارك في الضجة التي أدانت كتاب طه حسين وكأنما أراد بذلك أن ينتقم من طه حسين لنقده له في فهمه كتاب «الأغاني» وأيضاً لمقارنته بين زميل للخضري وبين الأساتذة الجامعيين بفرنسا خرج منها ذلك بصفقة المغبون .

ومن المحتمل أن محنة منصور فهمي قد أجلت المواجهة بين طه حسين وبين الحانقين على المستشرقين . وكان طه حسين أول من نال درجة الدكتوراه بالجامعة

المصـريـة (ولم تكن آنـذاك في مستـوى الـدكتوراه الاوروبية) وذلك في العام التالي لقضيـة منصـور فهمي ، فمنـح بعثـة ليكمـل دراسته بفرنسا . وقد دعا الخديوي عبـاس الثـاني طه حسين إلى القصر الملكي ليهنئه ، وحذّره عند المقابلة من دراسته الفلسفة كما فعل منصور فهمي لأنها أفسدت على ذاك عقله.(٧٢) .

ووقـع طه حسـين بدوره في السـوربـون تحت تأثير ليفي ـ برول ، ولكنه أعدّ رسـالتـه عن ابن خلدون بالكثير من الحذر وقضية منصور فهمي نصب عينيه .(٧٣) وبسبب قضيـة منصـور فهمي اضطـر طه حسين إلى عرض أطروحته على الجامعة المصـريـة من أجـل الموافقة عليها من وجهة نظر الدين . فشهد أحمد لطفي السيد باستقامة معتقداته ، وبهذا نال طه حسين اجازة الدكتوراه من السوربون .

وكـان طه حسـين ومعـه الجـامعة قد اصطدما مع السلفيين منذ عام ١٩١٤ عنـدمـا علم أحـد نواب الجمعيـة التشـريعية المصرية بأن أطروحة طه حسين عن الشاعر المكفوف أبي العلاء المعري رفضت دون تحفظ المنهج الأزهري في الدراسات الأدبيـة مفضلّة عليـه منـاهـج المستشـرقـين . وقدّم النائب مشروع قانون بقطع المعـونـات المـالية فوراً عن الجامعة لتخريجها ذلك «الملحد».(٧٤) غير أن سعد زغلول خنقه في المهد ، مقترحاً قطع المعونات عن الأزهر أيضا لأنه خرّج ذلك «الملحد» نفسه .

وكتـاب طه حسـين «في الشعـر الجـاهـلي» الـذي استقى بعض أفكـاره من المستشـرق البـريطـاني مرجليـوث M.S. Margoliouth ، يذهب إلى أن معظم الشعر الجاهلي انتحل بعد ظهور الإسلام .(٧٥) . بل إن طه حسين ذهب أبعد من ذلك حين تشكـك في قصـة بناء ابراهيم واسماعيل للكعبة بمكة . فأثار هذا ثائرة شيخ الأزهر الـذي أحـال الكتـاب إلى لجنة من العلماء قضت بتكفير ما جاء بالكتاب وطالبت بأن تحمي الدولة الاسلام بطرد طه حسين من الجامعة ومصادرة كتابه .

في هذه المـرة بلغ النـزاع درجـة من الحـدة فاقت قضيتي زيـدان ومنصـور فهمي . ذلـك أن الجـامعـة لم تعـد مؤسسة أهلية قليلة الأهمية، بل كانت الجامعة الحكـوميـة التي تقف على قمـة النظام التعليمي بالبلاد . وكان الانسحاب الجزئي للبـريطـانيـين من التـدخـل في شئـون مصر قد ترك للمصريين مسئولية السياسة التعليميـة ببـلادهم . أضف إلى هذا أنه عند انفجار العاصفة لم يكن طه حسين في وضـع صحفي مسيحي من لبنـان لا نصـير له كزيـدان ، أو حتى في وضع خريج لا حول له كمنصور فهمي ، بل كان يشغل كرسي أستاذ جامعي له حلفاء أقوياء سواء في المحيـط العلمي بين الاسـاتـذة أو في المحيـط السيـاسي بين الساسة . أخيراً فإن النزاع سريعاً ما اشتبك بالنزعات السياسية التي استعرت حدتها في تلك الأيام .

وكـان الملك فؤاد، الـذي لم تنكشف نزعتـه الاوتقراطية إلّا فيما بعد ، يجهد آنـذاك في خلق جامعـة مصـرية ذات اتجاه علمي صرف ويحاول استمالة السلفيين من الأزهـريـين ، لذا فلم يوجـد ما يمنعه من التضحية بطه حسين . غير أن محاولة الملك السيطرة على الأوضاع بالبلاد تعرضت للاهتزاز عام ١٩٢٦، بحيث لم يستطع الحيلولـة بين اعـدائـه الوفديين وبين الدخول في الحكومة : ورغماً من كراهية سعد زغلول وعـدد كبـير من الـوفـديـين للملك ، إلا أنهم انضموا لأعداء طه حسين ، إما لعـلاقتـه مع منـافسيهم الأحـرار الـدستوريين أو لأنهم أبصروا في القضية فرصة تقـربهم من الجمـاهـير في صورة المدافعين عن الاسلام . غير أنه لم يكن بمقدورهم إثـارة مسألـة لم تتحـد حولهـا الكلمـة ولربما أنهت ائتلافهم الضعيف مع الأحرار الدستوريين شركائهم في الحكم .

وكـانت مسـانـدة الأحـرار الـدستـوريـين لطـه حسين هي التي ضمنت له الاستمـرار في السنـوات الأخـيرة من العشرينات : وهم لم يدافعوا عن آرائه بل عن حريـة الفكـر واستقـلال الجامعة . ووقف يسانده بصلابة احمد لطفي السيد مدير الجـامعـة آنذاك، كما ساندته ايضاً صحيفة الأحرار الدستوريين «السياسة» التي كان يكتب فيهـا طه حسـين بانتظـام . ولعـل الأحـرار الدستوريين سارعوا بصورة خاصـة للدفـاع عن طه حسـين ، آخـذين في حسـابهم المعـركة التي جرت في العام السابق على ذلك حول كتاب على عبد الرازق «الاسلام وأصول الحكم»[٧٦] وتحاشى رئيس الـوزراء عدلي يكن أن يولي المسألـة أهميـة خاصـة بمنـاقشتها في البرلمان ، فأحالها إلى القضاء الذي لم يلبث أن أمر بحفظها. في تلك الاثناء كان طه حسين قد أكد أنه مسلم صحيح العقيدة وحذف الاشارات إلى ابراهيم واسماعيل من الطبعة الجديدة لكتابه.

وبدلاً من أن يفقد منصبه بالجامعة فإن الأستاذ الكفيف على العكس من ذلك ترقى ليصبح عميداً لكلية الآداب عام ١٩٣٠ ، وكان بهذا أول مصري شغل ذلك المنصب.[٧٧] غير أن ايامه بالجامعة كانت معدودة . فبين عامي ١٩٣٠ و١٩٣٣ عمل الملك فؤاد بمعـاونة رئيس وزرائه اسماعيل صدقي على الغاء دستور ١٩٢٣ وفرض دستـوراً جديـداً بالقـوة وملأ البـرلمان بأنصار القصر . وهاجم العميد طه الحكومة لتـدخلهـا في شئـون الجامعة ، فأبعدته الحكومة بفظاظة عنها . وكان لاقصائه من الجامعة رد فعل شديد فأضرب الطلبة واستقال مدير الجامعة أحمد لطفي السيد ، ورفعت رأسهـا من جديـد الاتهـامـات القـديمـة بالالحاد وعدم احترام المعتقدات بالصحف بأروقـة البـرلمـان . واغتبطت صحيفة «المنار» و «جميع أهل الدين» لهذا «الاصلاح» الذي جرى ، وذلك بإبعاد طه حسين ولطفي السيد من «الجامعة الملحدة»[٧٨] .

أما منصور فهمي الذي كان ما يزال يلعق جراحاته فإنه لم يسارع الى مدِّ يد العون لطه حسين ، بل وقبل في واقع الأمر عمادة كلية الآداب بدلاً منه ، غير أن محاولة فؤاد وصدقي لفرض نظام اوتوقراطي بالبلاد كان مصيرها الفشل ، وعاد احمد لطفي وطه حسين الى منصبيهما مظفرين .

ورغماً من أن طه حسين انتقد مستشرقين معينّين من وقت لآخر ، فقد أظهر تقديره الدائم لعلم المستشرقين باشتراكه في مؤتمراتهم الدولية. (٧٩) . وكان أول مؤتمر يشترك فيه هو الذي عقد باكسفورد عام ١٩٢٨ . وفيما بعد مثل مصر بانتظام مع عدد من زملائه بالجامعة متناوبين ، في مؤتمرات المستشرقين التالية لذاك .

محنة محمد أحمد خلف الله .

عندما قدم محمد احمد خلف الله أطروحته بعنوان «الفن القصصي في القرآن» إلى جامعة فؤاد الأول عام ١٩٤٧، كانت مصر تمر بفترة من الاضطرابات العصيبة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية ولم تنته الا بانفجار ثورة ١٩٥٢. ذلك أن بقاء القوات البريطانية بأرض مصر ولّد شعوراً بالاحباط في قلوب المصريين الذين كانوا يحلمون بالاستقلال التام ، كما أن قرائن الأحوال كانت تشير إلى أن العرب واليهود بفلسطين في طريقهم إلى صدام مسلح لم يلبث أن انفجر عام ١٩٤٨ وجرّ في أعقابه بقية الشعوب العربية . وكان ملاك الأراضي بمصر يجهدون في عرقلة محاولات الاصلاح الداخلي ، هذا على حين تزايدت حاجة الشعب إلى الغذاء والسكن والتعليم والوظائف أكثر من قبل . وقلت محبة الملك سريعاً في نفوس المواطنين عندما أبصروا أنه فتى لاهٍ . أضف الى هذا الوزارات غير الوفدية المتتالية لم تحظ بمساندة الشعب . وانخرط الشباب ، يحدوه الأمل تارة واليأس تارة أخرى ، في الحركات المتطرفة مثل مصر الفتاة والاخوان المسلمين والجماعات اليسارية . وسقط اثنان من رؤساء الوزراء ووزير سابق ضحايا للاغتيالات السياسية . وبدا جلياً أن العنف في سبيله الى التزايد. وعلى نقيض السابقين له فإن محمد احمد خلف الله قدم نفسه كمدافع عن الاسلام ضد افتراءات المستشرقين(٨٠) . وكان المشرف على رسالته هو الاستاذ امين الخولي الذي وضّح له كيف يمكن نقد آراء المستشرقين ، مع الاستفادة في ذات الوقت من منهجهم في البحث . ذلك أن أمين الخولي برع في هذا الأسلوب ، مما يمكن ابصاره من تعليقاته على مقالات زميليه بالجامعة جوزيف شاخت وباول كراوس التي ظهرت في الترجمة العربية «لدائرة المعارف الاسلامية» (٨١)

وقد انتقد خلف الله المستشرقين لانكارهم صحة ما جاء في القصص القرآني ، ولكنه فعل ذلك بأسلوب عدّه السلفيون مستعاراً من الغرب وغير مقبول

البتة . ونسب خلف الله الخطأ إلى المستشرقين في تشككهم في صحة القصص الوارد بالقـرآن وقـال انهم تنكبوا الصواب لأنهم أخفقوا في التمييز بين القصص التاريخي ومـا أريـد به الموعظة والعبرة ، وهما «حقيقة أدبية» أكثر منها تاريخاً . وكرس خلف الله قسمـاً كبـيراً من دراستـه للمسـائل السيكلوجية [النفسانية] والسوسيولوجية (الاجتماعية)، ولكنه لم يخض في المسائل الالهية .

وخذل خلف الله اثنان من لجنة التحكيم. غير أن العاصفة الحقيقية انفجرت خارج جامعـةفـؤاد الأول ، وذلـك بالأزهـر . ولأشهر عديدة نشرت مجلة «الرسالة» جدلاً مستمـراً بين خلف الله ومعـارضيـه . فالمعـارضـون اتهموه بسرقة أفكاره من مبشر نصراني اسمه سان كلير St. Claire ، واستشهاده بكتب التفسير المبكرة دون أخـذ للظـروف التي دونت فيهـا ، فكيف أصبـح بمقـدور المعـايـير البشـرية للنقد التـاريخي والادبي أن تدعي لنفسهـا الحق في الحكم على التنـزيـل الالهي الذي لا يأتيه الباطل من أمامه ولا من خلفه!

واحتج خلف الله بأنه لم يخرج من ربقة الاسلام ، وأن المعارضين يرفضون اليوم ما قرره الامام الشيخ محمد عبده بين جدران الأزهر منذ أعوام طويلة .

وطـالب المعتـرضـون بإيقاف خلف الله والمشرف على رسالته أمين الخولي من التدريس بالجامعة حتى يفصل في أمرهما مفتي مصر.

ولم يخـرج اعـداء خلف الله الا بنصف رغيف ، ورفضت جامعـة فؤاد الأول تدخـل الأزهـر لطـرد خلف الله ، غير أنـه اضطـر الى الاستقـالة من وظيفة مساعد المدرس التي كان يشغلها بالجامعة والى تدوين أطروحة جديدة تماماً في موضوع لا علاقـة له بالـدين قبـل أن يحصـل على اجـازة الـدكتـوراه . وفي عام ١٩٥٣ نشـر أطروحته الأولى في شكل معدّل مع مقدمة لأمين الخولي .

وخذل خلف الله اثنان من لجنة التحكيم. غير أن العاصفة الحقيقية انفجرت خارج جامعـةفـؤاد الأول ، وذلـك بالأزهـر . ولأشهر عديدة نشرت مجلة «الرسالة» جدلاً مستمـراً بين خلف الله ومعـارضيـه . فالمعـارضـون اتهموه بسرقة أفكاره من مبشر نصراني اسمه سان كلير St. Claire ، واستشهاده بكتب التفسير المبكرة دون أخـذ للظـروف التي دونت فيهـا ، فكيف أصبـح بمقـدور المعـايـير البشـرية للنقد التـاريخي والادبي أن تدعي لنفسهـا الحق في الحكم على التنـزيـل الالهي الذي لا يأتيه الباطل من أمامه ولا من خلفه!

واحتج خلف الله بأنه لم يخرج من ربقة الاسلام ، وأن المعارضين يرفضون اليوم ما قرره الامام الشيخ محمد عبده بين جدران الأزهر منذ أعوام طويلة .

وطـالب المعتـرضـون بإيقاف خلف الله والمشرف على رسالته أمين الخولي من التدريس بالجامعة حتى يفصل في مفتي مصر .

ولم يخـرج اعـداء خلف الله الا بنصف رغيف ، ورفضت جامعـة فؤاد الأول تدخـل الأزهـر لطـرد خلف الله ، غير أنـه اضطـر الى الاستقـالة من وظيفة مساعد المدرس التي كان يشغلها بالجامعة والى تدوين أطروحة جديدة تماماً في موضوع لا علاقـة له بالـدين قبـل أن يحصـل على اجـازة الـدكتـوراه . وفي عام ١٩٥٣ نشـر أطروحته الأولى في شكل معدّل مع مقدمة لأمين الخولي .

والخلاصة ...

إن تركيزنا الكلام على جامعة القاهرة لم يسمح لنا إلا بإلقاء نظرة عاجلة على أفكـار المستشـرقـين الـذين درسوا بها وسلوكهم الشخصي ، كل على حدة. كما أن طبيعـة المـوضـوع حتمت علينـا الا نقف طويـلاً عند الأطراف الاخرى في النزاع ، أقصـد الصحف مثـل «المنـار» ، ومجمع اللغة العربية ، والازهر ومعاهده ، وبعض المؤلفات الكبرى مثل كتاب العقيقي في الدفاع عن المستشرقين أوكتاب محمد البهي في إدانتهم . [٨٣] .

ولقـد وضّـح مقـالنـا الدور الذي لعبه المستشرقون ومن خلفوهم بالجامعة في ادخـال المنـاهـج الغربية للبحث العلمي بمصر ، كما بينا الخطوط العريضة لتدخل الاتجاهات القومية المختلفة للاستشراق الاوروبي في شئون الجامعة . أما القضايا الأربـع التي وقـع اختيـارنـا عليها للدراسة فتقف دليلاً على رد الفعل العنيف الذي أحدثه أثر المستشرقين على العلم آنذاك في نفوس أفراد الشعب . ولم يحدث النزاع بمصـر حول دور المستشـرقـين في فراغ ، فقد جاء المستشرقون الى الجامعة في وقت كانت فيه المجتمعات الاسلامية تمر بحال من الضعف كان الغرب يتغول فيه على تلك المجتمعات ويعمل للسيطرة عليها . وكان المبشّرون المسيحيون في حال من النشاط والحماس ، يحدوهم الأمل في بسط العقيدة النصرانية على العالم أجمع ، وقلّ من لم يعتقـد من الغـربيين آنذاك ان حضارتهم فاقت جميع الحضارات الأخرى ، بما في ذلك الاسلامية . ولأنهم كانوا أبناء عصرهم وظروفهم فإن المستشرقين أجابوا دعوة بلادهم من وقت لآخر ليضعوا معارفهم العميقة تحت تصرفها في محاولاتها لاخضاع المسلمين والسيطرة عليهم .

وانقسم المصريون في حكمهم على المستشرقين الى مجموعتين ، وبخاصة وان مجتمعهم كان يمر آنذاك بفترة يجثم فيها الاحتلال الاجنبي على صدره . فالمجموعة الأولى ضمت معظم الـذين شاركـوا في تأسيس الجامعة، ممن ظنوا أن المستشرقين

بإمكانهم العون في تحديث مصر، بل ولربما العالم العربي أو الاسلامي بأجمعه . وكانت هذه هي العلة الاساسية في استضافتهم للمستشرقين . هذه المجموعة كانت تأمل في أن تأخذ عنهم منهج البحث من جهة ، وان ستفيد من المادة التي جمعها المستشرقون حول ماضي الاسلام وتراثه من جهة أخرى . ولكي يأخذوا عنهم ما هم في حاجة إليه بنصرهم يغضون النظر ولو لوقت قصير وداخل صحن الجامعة ـ عن عداء بعض المستشرقين للاسلام . وقد حثّ طه حسين زملاءه بمجمع اللغة العربية ان يتناسوا السياسة عند مناقشتهم للمسائل العلمية، وتساءل ذات مرة هل اعترافه بما أسهم به (المستعرب الفرنسي) جورج مارسيه G. Marcais في دراسة اللهجات العربية بالمغرب يُعدّ تعضيداً لسياسة فرنسا الاستعمارية أو اتفاقاً مع جورج مارسيه في معتقداته السياسية![٨٤] .

وقام رأي معارضي الاستشراق على أساس من أن المستشرقين إنما يكيدون للاسلام ويجهدون في تدعيم النصرانية (أو اليهودية أو الالحاد)، وانهم اخذوا طرفاً في تغولات الغرب على العالم الاسلامي . هذه الفئة كثيراً ما استقت معلوماتها من مصادر ثانوية وعمّمت الحكم على المستشرقين كمجموعة ، وان وجب القول بأن بعض مزاعمها لا تخلو من الصحة . وكان أفرادها على اقتناع بأن وضع العجز الذي يمر به المسلمون حالياً ليس في الوسع تجنبه الا بالتمسك بالتعاليم الأزلية التي اتت بها العقيدة والشريعة الاسلامية ، وليس بالأخذ من المستشرقين وغيرهم من مفكري الغرب . وقد أبصروا في المحاولات لتحديث الاسلام أو تكييفه بصورة تجعله مواكباً للفكر الغربي ، زيغاً وانحرافاً عن الصراط المستقيم ولن يؤدي في آخر الأمر إلا الى الكارثة . لذا فإن مصلحة الأمة في قمع كل من يدعو الى ذلك .

والازهر في تمسكه بالدفاع عن منهج الحفظ والاستظهار وفي تصوره للعلم على أنه علم الدين وحده ، كثيراً ما بدا وكأنه قطب المعارضة ضد جامعة القاهرة . هذه الصورة صحيحة إلى حد كبير ، وتعكس تصورات الأساتذة في كل من الازهر وجامعة القاهرة . وفي القضايا الاربع التي عالجنا الكلام عليها ، قاد الهجوم ضد الأساتذة المرتبطين بجامعة القاهرة الأزهريون واعضاء هيئة كبار العلماء . غير أنه ينبغي أن نتذكّر أن طه حسين وخلف الله كان لهما اعداؤهما خارج الجامعة وداخلها ، وأن الأزهر نفسه لم يخل من أنصار النزعة التقدمية * .

---

* عن المستشرقين الوارد ذكرهم في المقال راجع نجيب العقيقي «المستشرقون» (في ثلاثة أجزاء) . القاهرة ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥ . واستكمله بمصنف عبد الرحمن بدوي «موسوعة المستشرقين»، بيروت ١٩٨٤ .
أما عن علماء الايجبيتولوجيا Egyptology (دراسة حضارة مصر الفرعونية) فراجع بالانجليزية كتاب
Warner Dawson and Eric Uphill, Who was Who in Egyptology, 2 nd reised edition , London , 1972.

مصادر البحث

1. Ahmad Amin, *Hayati* (Cairo, 1961),pp.149-50. Cf. the translation by Issa J. Boullata, *My Life: The Autobiograpy of an Egyptian Scholar. Writer. and Cultural Leader* (Leiden, 1978),p. 99.
2. Carlo Nallino, *ʿIlm al-falak: Tarikhuh ʿinda alʿ-Arab fi al-qurun al-wusta* (Cairo, 1911).
3. The phrase also echoes Nadav Safran's *Egypt in Search of Political Community* (Cambridge, Mass., 1961).
4. On the early years of the university, seeʿAbd al-Munʿim Ibrahim al-Dissuqi al-Jamiʿi, *al-jamiʿa al-Misriyya al-Qadima: Nashʿatuha wa dawruha fi al-mujtamaʿ*. 1908-1925 (Cairo, 1980) and *al-Jami a al-Misriyya wa al-mujtamaʿ* , 1908-1940 (Cairo, 1983). and Ahmad Abd al-Fattah Budayr, *al-Amir Ahmad Fu'ad wa nash' at al-jami a al-Misriyya*, Cairo, 1950.
5. On Dar al-Ulum, see Lois A. Aroian, *The Nationalization of Arabic and Islamic Education in Egypt: Dar al-Ulum and al-Azhar,* Cairo Papers in Social Science, Vol. 6 Monograph 4 (Dec. 1983), and Muhammad Abd al-Jawwad, *Tuqwim Dar al-Ulum* (Cairo, 1952).
6. Taha Husayn, *A Passage to France: The Third Volume of the Autobiography of Taha Husain,* trans, Kenneth Cragg (Leiden, 1976), pp. 34-35.
7. On Fu'ad see Roberto Cantalupo, *Fuad primo re d'Egitto* (Milan,1940); Sirdar Ikbal Ali Shah, *Fuad: King of Egypt* (London, 1936); and Karim Thabit, *al-malik fu'ad malik al-nahda* (Cairo,1944).
8. Anwar al-Jindi, *Ahmad Zaki, al-mulaqqab bi-shaykh al-ʿUruba* (Cairo, 1973); for Maspero, Warren R. Dawson, *Who was Who in Egyptology* (London, 1972),pp. 197-98.
9. On Guidi, Nallino, and Santillana, see Najib al - ʿAqiqi, *al - Mustashriqun* (Cairo, 1980-81), Vol. 1. pp. 425-26, 432-34, and 428, respectively.
10. Cairo University Archives (hereafter CUA), Records for 1908-1925 in the university's Central Library, Box 1, Folder 1, Minutes of the Technical Committee, April 19, 1910, pp. 4-5.
11. Ismaʿil Husayn, Safha min hayat al-Jamiʿa al-Misriyya al-Qadima, *Majallat al-tarbiyya al-haditha,* 10,4 (April 1937), 393. Husayn, Passage, p.44, mentions the walkout.
12. ʿAiqiqi, *Mustashriqun,* Vol. L,pp. 441-42.
13. On the academy see Rached Hamzaoui, *L'Académie de langue du Caire:* Histoire et oeuvre (Tunis, 1975).
14. On Wiet see Myriam Rosen-Ayalon, ed., *Studies in Memory of Gaston Wiet* (Jerusalem, 1977). pp.ix-xii. On Massignon, see Ibrahim Madkur. Majmaʿal-lugha al-ʿArabiyya *fi ʿiduh al-khamsin: Maca al-khalidin* (Cairo,1981), pp. 97-105; Guilo Bassetti-Sani, *Louis Massignon (1883-1962), Christian Ecumenist: Prophet of Inter-Religious Reconciliation,* trans. Allan Cutler (Chicago, 1974); Edward Said, *Orientalism* (New York, 1979), pp. 265-83; Said, "Islam, the Philological Vocation, and French Culture: Renan and Massignon, in Malcolm Kerr, ed., *Islamic Studies: A Tradition and Its Problems* (Malibu, Calif., 1980). pp. 66-72; and Jean-Jacques Waardenburg, *Islam dans le miroir de l'Occident* (Paris, 1963), pp. 236-40.
15. For Galarza and Casanova, see ʿAqiqi, *Mustashriqun,* Vol. 2, 203, and Vol. L, pp. 291-20.
16. For Schadde,see *Der Islam,* 31 L (1953), 69-75. On the National Library see pamphlet Dar al-Kutub al-Qawmiyya (Cairo,1979), and Karl Baedeker, *Egypt and the Sudan* (Leipzig, 1908), p.60.

17. Autobiographical sketch in *The Library of Enno Littmann,* 1875 - 1858 (Leiden: Brill catalogue No. 307, 1959), pp. xiii-xx. For Bergstrasser, see ʿAqiqi, *Mustashriqun,* Vol. 2. pp. 450-51. On Schacht, see *Bulletin of the School of Oriental and African Studies. 33* (1970), 378-81, and *Journal of the American Oriental Society, 90* (1970), 163-67. For Krause, see ᶜAqiqi, *Mustashriqun,* Vol. 2, p. 472.
18. Lampson to FO, Nov. 28, 1938, FO395/567/P3361; and Blackman to Scrivener, April 24, 1942, FO370/663/L1714. (FO references are to the Foreign Office records of the United Kingdom, Public Record Office, London.) See also Dawson, *Who Was Who* pp. 154-55.
19. See R. W. Hamilton, Keppel Archibald Cameron Creswell, 1879-1974. *Proceedings of the British Academy,* 60 (1974), 1 - 20. His ignorance of Arabic makes him an oddity in the orientalist circles.
20. On Gibb see Albert Hourani, H. A. R. Gibb: The Vocation of an Orientalist, in his *Europe and the Middle East* (Berkeley, Calif., 1980),pp. 104-34. See the notice on Arnold by ᶜAbd al-Wahhab ᶜAzzam, *Sahifat al-Jamiᶜa al-Misriyya,* 2, L (January 1931), 82-85. On Minorsky, see ʿAqiqi, Mustashriqun, Vol. 2, pp. 108-9. For Newberry, see Dawson, *Who Was Who,* p. 216, Autobiographical sketch by A.J. Arberry in his Oriental Essays: *Portraits of Seven Scholars* (London,1960),pp. 233 ff.
21. Dawson, Who Was Who, P. 118,292-93. See also Vikentiev's appreciation of Gol'enischeff, *Bulletin of the Faculty of Arts,* Fouad I University, 13, I (May 1951), 1-9.
22. Budayr, Ahmad Fuᶜad, pp. 195-207.
23. Minute by Peterson, May 5, 1933, FO371/17023/J1080.
24. Lampson to Norton, March L, 1940, FO371/24632/J798.
25. Robert Graves, *Good-Bye to All That* (London,1931), p. 433.
26. *Muhammad* Mahdi ᶜAllam, *Majmaᶜal-lugha al-ᶜarabiyya fi thalathin ᶜamman, Vol. 2, al-Majmaᶜiyyun* (Cairo, 1966), p. 228.
27. Ronald Storrs, *The Memoirs of Sir Ronald Storrs* (New York, 1937), pp. 134-35, and *Sahifat al-Jamiᶜa al-Misriya,* 2 (Jan. 1931), 26.
28. Jurji Zaydan, *Trikh adab al-lugha al-ᶜarabiyya* (Cairo,1968), Vol. 4, p. 158. G.H. Jansen, Militant Islam (New York, 1979). pp. 77-81, confirms this picture, but note the contrary view in Harry J. Benda, Snouck Hurgronie *International Encyclopedia of the Social Sciences,* Vol. 14, pp. 340-42, which portrays him as sympathetic to Indonesians and opposed to die-hard Dutch colonialists. See also Waardenburg, *Islam,* pp. 18-27. Because Hurgronje was invited to the Egyptian University, he is occasionally included in the analysis in this article although he did not take up the invitation.
29. Muhammad Kurd ʿAli, "Aghrad alomustashriqin," *al-Risala,* 3, 114(Sept.9.1935), 1477.
30. Ign. Guidi, *L'Arabie anteislamique* (Paris,1921),p. 31.
31. Carlo Nallino, *La litterature arabe des origines a lepoque de la dynasite umayyade, trans.* C. Pellat (Paris, 1950).
32. A religious invocation with which Muslims traditionally opened speeches or books. CUA, Box 19, Folder 544, contains Massignon's daily lesson outline, written in Arabic in his own unusual hand. L.Massignon, "L'histoire des doctrines philosophiques arabes 'a l'Universit'e du Caire, *Revue du Monde musulman,* 21 (1912), 149-57, is the French text of this first lecture.
33. Se CUA, Box 6, Folder 86, Syllabus (1910-1911) for the course Histoire des Doctrines Philosophiques.

34. Sir Valentine Chirol, *The Egyption Problem* (London, 1920) ,p. 255.

35. Products of these efforts included Gabriel Hanotaux, ed. *Histoire de la mation 'egyptienne, 7 vols.* (Paris, 1931-1940); *the Precis de l'histoire d'Egypte,* 4 vols. (Cairo, 1932-1935) by various historians; Georges Douin, *Histoire du regne du Khedive Ismail,* 3 vols. (Rome, 1933 -); and publications of archival documents edited by J. Deny, G. Douin, H. Nahoum, E. Driault. and others.

36. Husayn, *Passage,* pp. 5-6.

37. Amin, *My life: The Autobiography of an Egyption Scholar, Writer, and Cultural Leader,* p. 68.

38. Husayn, *al-Tarbiyya al-haditha* 386, 392-93.
39. Husayn, *Passage,p.* 44, which also mentions ridicule of the orientalists' Arabic.
40. ᶜAllam, *Majmaᶜiyyun,p.* 228.
41. Husayn, *al-Tarbiyya al-haditha,* 386-87.
42. Ibid., p. 392.
43. Husayn, *Passage,* p. 35.
44. Ibid., p. 45, and Husayn, *al-Tarbiyya al-haditha,* 392.
45. Husayn, *al-Tarbiyya al-haditha,* 391-92.
46. ᶜAzzam, *Sahifat* 2:83,84..

47. Mohammed al-Nowaihi, Towards a Reappraisal of Classical Arabic Literature and History: Some Aspects of Taha Husayn's Use of Modern Western Criteria, *International Journal of Middle East Studies,* 11, 2 (980), 192-93.

48. Amin, My Life, pp. 45, 52,The following three quotations are from pp. 73, 89, and 149-50.

49. Salim Farid, Ahdath maᶜa al-asatidha al-mustashriqin bi-i-Jamiᶜa al-Misriyya, *Sahifat al-Jamiᶜa al-Misriyya,* I (My I, 1929).

50. Husayn, *Passage,* p. 55, and interview with Dr. Suhayr al-Qalamawi, Cairo, Feb.16. 1983.

51. Jurji Zaydan, *Tarikh al-tamaddun al-Islami* (Cairo,1968). Vol.I,p.12. (Original eition: 5 vols., Cairo, 1902-1906) For Zaydan generally see Thomas Philipp, *Gurgi Zaidan: His Life and Thought* (Beirut, 1979).

52. Zaydan,*Tamaddun, and Tarikh adab al-lugha al-ᶜaribiyya, 4 vols.,* (Cairo,1910 - 1914). (Reprinted, with introduction by Shawqi Dayf, Cairo [1960s]).

53. Zaydan, letter to his son Emile, October 12,1910, translated in Philipp, Zaidan, p. 212. Analysis of incident by Philipp, pp. 63-65. See also the accounts in *al-Hilal,* 19 (December 1910), 177-81, and CUA, Box 2, Folder 126 , Minutes of the Council of Administration, Nov. 8,10, and 12, 1910.

54. Philipp, Zaidan, p. 236, mentions a manuscript in the archives of the American University of Beirut entitled "Misr al-Uthmaniyya," 'Zaydan had prepared it for his Egyptian University course.

55. CUA, Box 2, Folder 126, Minutes of the Council of Administration, Nov. 10,1910 and Husayn Muʾnis in his introduction to the 1968 edition of Zaydan, Tamaddun, Vol. L.p.9.

56. Husayn, *Passage,* pp. 40 - 41.

57. The following analysis is based on Zaydan *Tamaddun,* Vol. pp. 21-79.

58. Shibli al-Nuᶜmani, "Naqd tarikh al-tamaddun al-Islami" *al-Manar,* 15, i (Jan, 2, 1912), 58-67.(Reprinted by *al-Manar* with other reviews as *Kitab intiqad tarikh al-tamaddun al-Islami* (Cairo, 1912), and reprinted in Anwar al-Jindi, *al-Islam wa al-thaqafa al-ᶜarabiyya fi muwajahat tahdid al-istiᶜmar wa shubhat al-taghrib* (Cairo,n.d.) Much has been written on Rida; see for example, Malcolm G.Kerr. *Islamic Reform: The Political and Legal Theories of Muhammad ᶜAbduh and Rashid Rida* (Berkeley,1966).

59. Jamiᶜi, *al-Jamiᶜa al-Misriyya wa al-mujtamaᶜ.p.10. Zaydan first called for a madrasa kulliyya Misriyya in al-Hilal,* 8.9. (Feb.1, 1900), 264-67. For Marshall,see Marshall to Tyrrell, August 1907. Fo371/249/ 28843, and J. E. Marshall, A Plea for a University for Egypt Made by the Author in December 1904» *L'Egypte contemporaine,* 13 (1922), 625-28. See also Jacoub Artin, *Considérations sur L'instruction publique en Egypte* (Cairo, 1894),pp. 166- 67.

60. Husayn Mᵎnis, introduction to Zaydan, *Tamaddun,* Vol. 1, pp. 8,10.

61. In Muslim doctrine dhimmis were Christian and Jewish subjects who enioyed protection and certain rights but were not legally equal to Muslims.

62. Mansour Fahmy, *La condition de la femme dans la tradition et l'evolution de l'Islamisme* (Paris, 1913), p.v. For Fahmi and Nagib Mahfuz's fictional portrait of him, see Donald M. Reid, The Sleeping Philosopher' of Nagib Mahfuz's *Mirrors. The Muslim World,* 74, I (1984), 1-11. Biographical notieces on Fahmi include Ahmad Fuᵎad al-Ahwani, Majallat Kulliyat al-Adab, CairoUniversity (December 1959),pp. 1-6; Majmaᵎ al-lugha al-ᵎaribiyya fi thalathin ᵎAmman, Vol. 2: *al-Majmiᶜyyun* (Cairo,1966), 22-27; Khayr al-Din al-Zirikli, al-Aᶜlam, 5th ed. (Beirut,1980), Vol.7, p. 302; Jamiᶜat Fuᵎad al-Awwal, *al-Kitab al-fiddi li-Kulliyaat al -Adab* 1925-1950 (Cairo,1951),pp. 25-26; and Charles Adams, *Islam and Modernism in Egypt* (London, 1933),pp. 250-51.

63. This and the following paragraph are based on CUA, Bx2, Folder 129, Minutes of the Administrative Council, Dec, 5, 1913; and Box, 2 Folder 130, Minutes, Jan. 14.1914 The attempt to impound the offending thesis failed at least in part. The National Union Catalogue, Pre-1956 Imprints. 165:543, lists six American libraries that hold copies. One would hardly expect more for what was, after all, only a Sorbonne thesis by an unknown doctoral candidate.

64. Budayr. *Ahmad Fuᵎad,* p. 152.

65. Albert Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age* 1798-1939 (London,1962),pp. 164-70, analyzes Qasim Amin's ideas.

66. Muhammad Husayn Haykal, *Mudhakktrat fi al-siyasa al-Misriyya* (Cairo,1951), Vol.l,p. 46.Roger Allen Called my attenton to the Haykal-Fahmi connection.

67. Fahmy, *Condition,* p.166.

68. Ibid., p.6, n. 5.

69. CUA,Box3, Folder 136, Minutes of the Council of Administration, July 22, 1920; and Box 3, Folder 137, Minutes, April 18. 1921

70. Philipp,Zaidan, p. 44. On *Taha Husayn; His Place in the Egyptian Literary Renaissance* (London, 1956), and Hamdi al-Sakkut and Marsden Jones, Aᵎlam al-adab al-mu asir fi Misr, Vol. 1: Taha Husayn (Cairo,1975), ᶜAbd al-Munᶜim Ibrahim al-Dissuqi Al-Jamiᶜi, *Taha Husayn wa al-Jamiᶜa* al-Misriyya (Cairo,1981), focuses specifically on Taha's role in the university.

34. Sir Valentine Chirol, *The Egyption Problem* (London, 1920) ,p. 255.

35. Products of these efforts included Gabriel Hanotaux, ed. *Histoire de la mation 'egyptienne, 7 vols.* (Paris, 1931-1940); *the Precis de l'histoire d'Egypte,* 4 vols. (Cairo, 1932-1935) by various historians; Georges Douin, *Histoire du regne du Khedive Ismail,* 3 vols. (Rome, 1933 -); and publications of archival documents edited by J. Deny, G. Douin, H. Nahoum, E. Driault. and others.

36. Husayn, *Passage,* pp. 5-6.

37. Amin, *My life: The Autobiography of an Egyption Scholar, Writer, and Cultural Leader,* p. 68.

38. Husayn, *al-Tarbiyya al-haditha* 386, 392-93.
39. Husayn, *Passage,p.* 44, which also mentions ridicule of the orientalists' Arabic.
40. ᶜAllam, *Majmaᶜiyyun,p.* 228.
41. Husayn, *al-Tarbiyya al-haditha,* 386-87.
42. Ibid., p. 392.
43. Husayn, *Passage,* p. 35.
44. Ibid., p. 45, and Husayn, *al-Tarbiyya al-haditha,* 392.
45. Husayn, *al-Tarbiyya al-haditha,* 391-92.
46. ᶜAzzam, *Sahifat* 2:83,84..

47. Mohammed al-Nowaihi, Towards a Reappraisal of Classical Arabic Literature and History: Some Aspects of Taha Husayn's Use of Modern Western Criteria, *International Journal of Middle East Studies,* 11, 2 (980), 192-93.

48. Amin, My Life, pp. 45, 52,The following three quotations are from pp. 73, 89, and 149-50.

49. Salim Farid, Ahdath maᶜa al-asatidha al-mustashriqin bi-i-Jamiᶜa al-Misriyya, *Sahifat al-Jamiᶜa al-Misriyya,* I (My I, 1929).

50. Husayn, *Passage,* p. 55, and interview with Dr. Suhayr al-Qalamawi, Cairo, Feb.16. 1983.

51. Jurji Zaydan, *Tarikh al-tamaddun al-Islami* (Cairo,1968). Vol.I,p.12. (Original eition: 5 vols., Cairo, 1902-1906) For Zaydan generally see Thomas Philipp, *Gurgi Zaidan: His Life and Thought* (Beirut, 1979).

52. Zaydan,*Tamaddun, and Tarikh adab al-lugha al-ᶜaribiyya, 4 vols.,* (Cairo,1910 - 1914). (Reprinted, with introduction by Shawqi Dayf, Cairo [1960s]).

53. Zaydan, letter to his son Emile, October 12,1910, translated in Philipp, Zaidan, p. 212. Analysis of incident by Philipp, pp. 63-65. See also the accounts in *al-Hilal,* 19 (December 1910), 177-81, and CUA, Box 2, Folder 126 , Minutes of the Council of Administration, Nov. 8,10, and 12, 1910.

54. Philipp, Zaidan, p. 236, mentions a manuscript in the archives of the American University of Beirut entitled "Misr al-Uthmaniyya," 'Zaydan had prepared it for his Egyptian University course.

55. CUA, Box 2, Folder 126, Minutes of the Council of Administration, Nov. 10,1910 and Husayn Muʾnis in his introduction to the 1968 edition of Zaydan, Tamaddun, Vol. L.p.9.

56. Husayn, *Passage,* pp. 40 - 41.

57. The following analysis is based on Zaydan *Tamaddun,* Vol. pp. 21-79.